حضارة بابل وآشور

حضارة بابل وآشور
جوستاف لوبون
ترجمة: محمود خيرت
الطبعة الأولى١٩٤٧
الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة - مصر

هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
http://www.azhabooks.com
E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

لوبون ، جوستاف. - ترجمة: محمود خيرت- حضارة بابل وآشور
– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢
١٩٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٠ – ٣ – ٨٦٣٤٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٢٥٤٤ / ٢٠٢٢

جوستاف لوبون

حضارة بابل وآشور

ترجمة

محمود خيرت

مقدمة

عنيت المطبعة العصرية عناية كبيرة بإخراج مؤلفات جوستاف لوبون باللغة العربية. وهذا الكتاب الذي نكتب مقدمته يختلف عما سبق أن ترجم للمؤلف، لأن الموضوعات التي عولجت في الكتب السابقة كانت اجتماعية يبحث فيها المؤلف قيمة الأفكار الاشتراكية والثورة الفرنسية ونحو ذلك[1]. أما هذا الكتاب فيبحث الحضارات القديمة في بابل وآشور مهد الأمم العربية الحاضرة.

ولسنا هنا بسبيل التقدير للفلسفة الاجتماعية التي كان جوستاف لوبون يؤمن بها ويدعو إليها في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فإن تفكيره هنا كان ثمرة الوضع الاقتصادي الذي كانت تعيش فيه طبقته، وثمرة النهضة الاقتصادية التي كانت فرنسا تستمتع بها في أيامه. فإنه كان ينتمي إلى الطبقة المتوسطة. وهي في فرنسا تتألف من المالكين الصغار، سواء أكانوا يملكون أرضًا للزراعة أو دكاكين للتجارة. وهؤلاء كانوا مطمئنين إلى عيشهم، يكرهون التغيير. ثم كانت الطوالع الاقتصادية القريبة لا تدل على خطر قادم، لأن تغلب المتاجر الكبيرة على المتجر الصغير لم يكن قد بدت أماراته. ومن هذا الموقف الفلسفي الاجتماعي الذي وقفه جوستاف لوبون. موقف المدافع عن حق الامتلاك الفردي، الكاره للاتجاهات الاشتراكية بأنواعها. وهنا أيضًا محور فلسفته الاجتماعية حين يتكلم عن الثورة الفرنسية، أو عن الأحزاب الفرنسية فيما بين ١٨٨٠ و١٩١٠.

---

[1] وهذه الكتب القيمة هي «روح الاشتراكية» و«روح السياسة» و«روح الثورات» و «الآراء والمعتقدات» (الناشر)

ولكن جوستاف لوبون كان مؤرخًا قبل أن يكون فيلسوفًا. بل هو قد صار فيلسوف لأنه كان مؤرخًا. وعنايته بدراسة الأمم القديمة هي عناية المؤرخ المالي الذي يحاول أن يكتب التاريخ باعتباره تاريخ الحضارة والتطور الاجتماعي وارتقاء الفنون، وليس تاريخ الحروب والأمراء والنوادر عن أبهة هذا الملاك أو كرم ذلك الأمير. ونحن في هذا الكتاب نقرأ وصفًا للدرجات الأولى في سلم الرقي البشري كما كانت ممثلة في حضارتي بابل وأشور.

وقد مات جوستاف لوبون قبل أن تظهر مدرسة البؤرة الواحدة. أي تلك المدرسة التي تزعمه إليوت سميث الإنجليزي وبرستيد الأمريكي. وهي تقول إن الحضارة الأولى الزراعية إنما نشأت في مصر فقط. ثم بعد ذلك شرعت تتفشى إلى جميع جهات العالم وقاراته. وإننا نجد بالاستقصاء آثار الحضارة المصرية القديمة في إنجلترا، كما نجدها في مكسيكيًا والهند والصين، بل حتى بين القبائل المتوحشة في أفريقيا. بل هناك لغويون مثل رندل هاريس استطاعوا أن يردوا بعض الأسماء الإنجليزية والروسية إلى أصل مصري قديم. وعندهم مثلًا أن أنقرة عاصمة تركيا إنما هي «أنخ رع». كما أن موسكو تعني «مدينة الجلود أو الفراء» في اللغة الفرعونية القديمة.

ولكن جوستاف لوبون لم يدرك هذه المدرسة. ولو أنه أدركها لا تنفعنا كثيرًا بتفكيره المعارض أو المؤيد. فإنه عالم أمير الشرق الأوسط باعتبارها مستقلة الواحدة من الأخرى، أي باعتبارها البؤر المتعددة للحضارات الأولى. ولكنه مع ذلك وجد وجوهًا كثيرة للتشابه تومئ إلى وحدة الأصل.

ويستطيع القارئ الذي يطلب شرحًا موجزًا للنظرية القائلة بوحدة الأصل أو البؤرة الواحدة للحضارة أن يقرأ كتابي «مصر أصل الحضارة».

وقيمة جوستاف لوبون هنا أنه جمع مقدارًا عظيمًا، بل عظيمًا جدًا، من

المعارف التاريخية عن هاتين الأمتين القديمتين. ونحن في مصر تحتاج إلى الكثير من هذه المعارف، وخاصة عن تلك الأمم السامية التي تقع شرق مصر، والتي تناوبت التاريخ وأضاء به قرون عديدة بألوان من ثقافها الفنية. وهو يسرد لنا قصة هذه الحضارات، ويتدرج بنا من البدايات المتواضعة، فيتناول العقائد الدينية ووصف المعابد، ثم يتدرج إلى ترف الملوك وارتقاء الفنون بما يكشف لنا عن صفحات مجهولة من التاريخ. وهي جميعها تلصق بنا لأننا أبناء هذه الأمم وأحق البشر بدرسها. وكان يجب أن تتفشى بيننا المؤلفات التاريخية في وصف الآشوريين والإيرانيين والممالك السامية العديدة من أرض النهرين إلى تدمر وبطرة. وكان يجب أن تستفيض بيننا للمؤلفات عن حضارات الفراعنة المتوالية منذ العصور الحجرية إلى دخول العرب. ولذلك نحن نرحب بظهور هذا الكتاب لأنه يسد فراغ أو بعض الفراغ. ولأنه ليس بقلم مؤرخ، وإنما بقلم فيلسوف، أي بقلم أحسن المؤرخين. ذلك أن التاريخ يجب أن يكتب في استعراض وتحيز، أي أن الكاتب يجب أن يكون له من سرد الحوادث مغزى اجتماعي وهدف فلسفي. وهذا هو ما يفعله جوستاف لوبون.

وبابل وآشور مملكتان نهضتا على أرض النهرين، أي العراق تقريبًا. ولا يظن القارئ أن الصلة مقطوعة بين الدولة العباسية والدولة الآشورية. فإن الخلفاء العباسيين وجدوا شعب آشور وبابل في العراق، بل وجدوا أيضًا أولئك اليهود الذين كانوا قد نفوا من أورشليم قبل ١٤٠٠ قرنًا إلى أرض العراق. حتى أن نقيبهم أيام العباسيين كان يقيم حقه في النقابة على أولئك الذين سبقوه قبل ١٤٠٠ سنة أيام النفي، أي السبي.

وقد عنى المترجم المرحوم محمود خيرت عناية كبيرة في التزام الأصل. ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا. ويجب أن يضاف هذا الكتاب إلى مكتبة التاريخ القديم

عند كل مثقف عربي.

ويحسن بالقارئ الذي يدرس هذا الكتاب أن يقرأ أيضًا كتابًا آخر للمؤلف هو «الحضارة المصرية القديمة» الذي نقله إلى العربية الأستاذ م. صادق رستم، وقامت بطبعه ونشره المطبعة العصرية. ذلك لأن الحضارات الثلاث، أي المصرية والبابلية والأشورية، تفهم أكثر بالمقارنة والمضارعة. وهو، أي القارئ، يزداد معرفة بهذه الحضارات القديمة عندما يقرأ أيضًا كتابي" مصر أصل الحضارة".

وقد حاولت في هذا الكتاب الأخير أن أشرح نظرية البؤرة الواحدة للحضارات القديمة. وهذه البؤرة، كما قلت، هي مصر.

وعندي أن أقرب الأشياء الى دراسة الدين هو دراسة التاريخ القديم. وقد كانت أوربا في عصر النهضة نتعلم «الإنسانية» بدراسة الإغريق والرومان القدماء حتى كانت تسمى هذه الدراسة باسم «البشريات» أو «الإنسانيات». ولا يزال هذا الاسم معروفًا في الجامعات الأوربية إلى اليوم. وذلك لأن التاريخ يكشف عن هذا التضامن البشري في المجهود العام نحو الرقي والثقافة والحضارة فيبعث على التفاؤل بالمستقبل والإيمان بالخير العام. بل هو أحيانًا يكشف أيضًا عن المأساة البشرية، مأساة الفقر والظلم اللذين عانهما جماهير الأمم من استبداد الطغاة والمستبدين. اعتبر مثلا كلمة «مسكين» التي يعرفها الباريسيون في عصرنا الحديث بمعناها العربي، معنى الذلة والحقارة والفقر بل العجز. فإن هذه الكلمة كانت تدرج على السنة البابليين منذ أربعة آلاف سنة، أي قبل الميلاد المسيحي بنحو ألفين من السنين بهذه المعاني أيضًا. وهنا مغزى يجب ألا ننساه.

واعتبر أيضًا هذا التدرج في المؤسسات البشرية: من الكهانة، إلى الملوكية، إلى القضاء. ومن العائلة إلى المجتمع، إلى الفنون المصرية، تجد أنه يكشف لنا عن سنة التطور التي يجب إلا نعرف عنها. فإن جميع هذه المؤسسات نشأت بدائية غشيمة، ثم انتهت إلى ما وصلنا إليه من ارتقاء عام.

بدأ حموري في بابل بمعاقبة المخطئ، أو المجرم، بعقوبات انتقامية. ووصلنا نحن بالعقوبة حتى جعلناها أحيانًا «مع وقف التنفيذ».

وكان ملوك القدماء آلهة. اعتبر الإسكندر المقدوني كيف كرس وقدس في معبد آمون حتى صار إلهًا. أما في ١٩٤٦ فقد أعلن إمبراطور اليابانيين للشعب أنه ليس إلهًا...

وهكذا. نحن نسير في تطور. ودراسة التاريخ القديم هي خير ما يضيء لنا هذا الطريق نحو التطور والرقي به.

سلامة موسى

يونيو ١٩٤٧

الباب الأول

البيئة والجنس

١- البيئة

إن ما جاد به نهر دجلة والفرات على الجزيرة والعراق (ما بين النهرين) من الخصب والرخاء لم يكن أقل مما أسبغه نهر النيل على أرض مصر من هذا القبيل. فمن فيضهما أترعت الحياض والغدران، وانسابت الأودية والمروج بين المفاوز والصحاري، فصارت مهدًا لعصر جديد من عصور الحضارة الزاهية.

ولكن هذين النهرين الأسيويين ليس لها ما للنيل من النظام والقوة، لأن فيضانهما لا يأتي بطريقة دورية ثابتة، ولأن قوة جريانهما ليست متساوية. فبينما يندفع نهر دجلة في مجراه اندفاعًا شديدًا يعوق الملاحة، ترى نهر الفرات ينحدر انحدارًا غير محسوس، ثم يفيض فينشر من حوله بطاحًا ومستنقعات فسيحة تضر بالصحة وتجعل المنطقة التي تعمها غير صالحة للسكن.

لذلك كانت أرض ما بين النهرين في أشد حاجة إلى سواعد الرجال وعملهم المتواصل (خلاف وادي النيل) لتنظيم جريان المياه. فلم تستطع الحضارة هناك أن تميس في ثوبها القشيب الأنيق إلا بعد أن أفرغ هؤلاء الرجال جهدهم في تقويم أود هذين النهرين. ولما وقفت حركة العمل وأهمل نظام الري، أجدبت الأرض وأمحل الزرع والضرع، فوقف السير في طريق الثروة وانهارت

مدنية تلك العواصم العامرة القائمة على ضفاف النهرين.

وسنرى بعد قليل مبلغ ما قام به هؤلاء الرجال من الأعمال الشاقة المتواصلة لإدراك الغاية من زراعة السهول الواسعة الأطراف في أراضي الجزيرة والعراق، ونذكر الأسباب التي حالت دون المضي في هذا السبيل.

على أن معظم أرض ما بين النهرين اليوم ليس إلا صحراء اندفنت في جوفها بقايا المدن القديمة فصارت آكامًا وتلالًا وكثبان رمال. فلا ترفع التراب عن وجه هذا السهل الفخر حتى تجلى لك من تحته عظمة تلك المدن التي كانت فيما مضى زاهرةً عامرةً. وما من يوم يمر إلا ويتحف العالم بشيء جديد من الشواهد على مجد تلك الممالك الغابرة.

والآن لم يبق لنا سوى آثار تلك العظمة وذلك المجد القديمين، حتى إن الأرض نفسها التي كانت في الزمن الماضي كثيرة الخصب وافرة الغلال أصبحت كأنها سئمت الإنتاج. ومع ذلك ففي فصل الربيع، حين يعيد الفيضان إلى أوردتها الجافة بعض الحياة، تراها تسترد شيئًا من الخصب والنضرة. ولكن رياح السموم اللافحة لا تلبث أن تعبث بها في الصيف فتجف، إلا ما كان منها على ضفاف الأنهر والجداول.

ثم إن الرطوبة المدفونة في الأرض في أسفل الفرات هي السبيل لتفشي الأوبئة، وتحول المستنقعات في كثير من جهاتها دون صلاحيتها للسكنى. على أن بعض فلول العرب ألفوا هذا الجو الوبيل، حتى أنهم لا يضربون خيامهم أو يبنون أخصاصهم إلا في الآجام والغدران. وهناك لا تقع عيناك على أشجار إلا عند ضفاف الأنهر، ولا يزيد ارتفاع سوقها عن خمسة أمتار. والزوارق تجري بين صفين منها، ولكن، يا ويل ركابها حين يضعون أقدامهم على الأرض الغمقة فإنهم يغوصون فيها.

ويجتمع نهرًا دجلة والفرات في شط العرب[٢]. وقد كانا في العصر الذي قبل التاريخ مستقلان عن بعضهما إلى أن يصبا في الخليج الفارسي. وكان بين مصبيهما نحو عشرين فرسخًا. وقد تجمع من رواسيهما مثلث شبه دلتا النيل، يأخذ في الاتساع شيئًا فشيئًا وبطريقة منتظمة بحيث يمكن الاهتداء إلى قياسها.

وكل من النهرين صالح للملاحة. إلا أن سرعة تدفق الدجلة وقلة عمق الفرات يعوقان سير السفن الكبيرة. ولهذا السبب، والسبب الذي سنذكره عند الكلام على الزراعة، اضطر السكان القدماء إلى إتمام عمل الطبيعة بما لجأوا إليه واستعانوا به من نظم الري.

ومن يطلع على تاريخ هيرودوتس، يلم بما كانت عليه هذه البلاد– بلاد بابل وآشور– من الحضارة والعمران. فإنه بعد أن ذكر مجدها وأشار إلى ثروة بابل العظيمة، قياسًا على ما كانت تدفعه من الخراج إلى ملك الفرس، قال:

«ليست الأمطار بغزيرة في بلاد أشور، وهي لقلتها تكاد ألا تكفي لإرواء جذور الحبوب المبذورة؛ فكان الناس يعمدون إلى استمرار ريها بمياه النهر حتى تنضج، ولم يكن كنهر النيل يفيض من نفسه فيروي ما حوله من السهل، بل كان الري هنالك بحاجة إلى سواعد عاملة وآلات رافعة.

«على أن بابل كانت كمصر، كثيرة الترع والقنوات، ومنها ما كان كافيًا لسير السفن التي تتجه جنوب بغرب من الفرات إلى دجلة حيث تقع «نينوى» الشهيرة بخصبها وكثرة حنطتها.

«نعم إنه لم يكن التين والعنب والزيتون من حاصلاتها، وقد يكون ذلك لعدم تجربة غرسها فيها، ولكنها مع ذلك كانت بطبيعة أرضها صالحة لزرع كل

---

[٢] وهذه الكتب القيمة هي «روح الاشتراكية» و«روح السياسة» و«روح الثورات» و«الآراء والمعتقدات» الناشر.

نوع من أنواع الحبوب، بحيث تبلغ غلة الكيلة مئتي كيلة وقد تبلغ الثلث مئة.

«ولشدة الخصب كان عرض ورقة النبات يبلغ أربعة قراريط. وإني وإن كنت لا أجهل مبلغ ارتفاع سوق الجاورس والسمسم، فاني أضرب عن ذكره صفحة لاعتقادي أن الذين لم يروا بابل لا يصدقون ما أذكره عن غلاتها

«ثم إن البابليين كانوا يستعملون زيت السمسم (سيرج) بدلًا من زيت الزيتون. وكانت سهول بابل مملوءة من النخيل، وجله مثمر؛ وكانوا يقتاتون ببعضه ويستخرجون من الباقي عسلًا وخمرًا».

ولقد كانت أشجار النخيل لكثرها من أكبر موارد الثروة في البلاد، حتى إن «سترابون» كان يروي عنها شعرًا فارسيًا عد فيه نحو ثلاثمائة وستين طريقة مختلفة لاستخدامها والانتفاع بها.

على أن حاصلات كلدة وبابل لم تكن كحاصلات آشور أو أرض الجزيرة العليا، لأن مناطق الأولى كانت عبارة عن سهل فسيح متصل بعضه ببعض، بخلاف الثانية التي كانت ترتكز في نصف دائرة على سلسلة جبال طوروس وأرمينية وكردستان، فهي لذلك منحدرة، ولأنها أيضًا على مقربة من قم تلك الجبال فقد كان هواؤها أقل جفافًا وحرارة مما هو في بابل، وكانت مياهها غزيرة، ولذلك لم تصلح للنخيل ولكنها كانت صالحة لما يغرس في أوربا من أشجار الكريز والبرقوق والمشمش وغيرها، ولما ينمو في غاباتها من أشجار الجوز والبلوط.

على أن أشور لم تخل في شمالها من جبال يلوح للإنسان أنها قامت حائلًا بين مجرى النهرين فاضطر أن يخترقا منفذًا فيها حيث تتجمع المياه وتدور بين جدارين مرتفعين من حجارة سوداء شديدة الصلابة، وحيث لا يجد الإنسان

طريقًا يصلح لأن يضع قدمه فوقه. ولكن كثيرًا من السياح دفعتهم جرأتهم إلى المخاطرة بقواربهم الخفيفة في هذه الأحواض الموحشة وهم ثملون براح جمالها الرائع.

أما نقطة الانفصال بين المناطق الكلدانية والأشورية فظاهرة من ممر طبيعي في أعالي بلدة «هيت» على الفرات و«سمره» على دجلة. وهذا المرتفع من الأرض الذي يشبه شاطئ رملي البحر عظيم كان على ما يظهر في العصور المزمنة ساحلًا حقيقيًا ترتطم عنده أمواج البحر الذي يطلق عليه الآن اسم الأوقيانوس الهندي.

ولا شك في أنه لما استعمر الناس هذا السهل أول مرة كان الخليج الفارسي يغمره إلى مسافة أربعين أو خمسة وأربعين فرسخًا. إذ أننا نجد الآن في مكان بابل عددًا لا يحصى من الأصداف والمحار. وكذلك نجد في مكان أبعد منه في جوف الصحراء أرضًا مشربة ملحًا.

وكل الثروة المعدنية من الحجارة الصلبة والرملية، والرخام، والحجر الأسود الصلد (basalt نسفة) والمرمر، والحديد، والرصاص، والفضة، والأنتيمون، وغيرها نجدها في المنطقة الجبلية من أرض ما بين النهرين العليا. أما سهل بابل فليس فيه شيء من ذلك، ولكن فيه منابع الأسفلت تتعرج مجاريها السوداء كالثعابين فوق سطح الرمال الذهبي حيث تنحدر بعض الأحيان في الفرات.

وهاك شيء مما ذكره عن ذلك ديودوروس الصقلي:

«ومن جملة مدهشات بابل مقادير الاسفلت التي فيها والتي لا تنضب منابعها. فهي لكثرتها لا تكفي لإنشاء المباني الضخمة فحسب، بل ترى الأهالي يجمعون هذه المادة ويستعملونها بعد تجفيفها وقودًا بدلًا من الحطب».



ينيب الجبار الآشوري

ولكننا إذا سهل علينا أن ندرك إمكان قيام مدن عظيمة آهلة بالسكان في أعالي أرض الجزيرة عند منبع النهرين الخصيب البعيد عن الجبال التي قامت في نصف دائرة كسد منيع دون غارات المغيرين، فإنه ليس من السهل أن ندرك كيف أمكن حضارة رائعة أن تنشأ وتترعرع في المنطقة القاحلة المحرقة الممتدة من هضاب إيران إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط حيث حدود المملكة الكلدانية.

نعم يصعب علينا أن نهتدي إلى علة. ذلك وقد اكتظت هذه المنطقة بالبلدان العامرة وكنوز العالم القديم حتى فاقت بابل أختها نينوى في المجد

والثراء، والرواء والخلود، وكادت تصبح سيدة المدن لولا ضرتها العتيدة طيبة المصرية، تلك المملكة الثانية التي كان لها عرش الماضي.

على أن بابل لم تقاوم وحدها فيما مضى من القرون قوة الصحراء الخادمة التي أدرجتها شيئًا فشيئًا في أكفانها، فإن تدمر لا تزال ترفع عن أعمدتها الشامخة كفنها الرملي.

ولكن «تدمر»، وإن كانت ابنة هذه المنطقة، إلا أن حقيقة حياتها وتقدمها لم تفهم إلى الآن كما فهمت بابل لأنها لم تشيد مثلها على شاطئ نهر.

ثم إننا لنتساءل عن المعجزة التي كانت سببًا في قيام تلك الممالك الجامعة لشتات الأمم، في مناطق تكاد لا تكفي الآن لسكنى عدد قليل من القبائل الرحل.

والجواب عن ذلك سهل إذا رجعنا إلى السبب نفسه. لأنه إذا كان نهر واحد سببًا في حياة مصر، فإن طريقًا واحدًا كان أيضًا السبب الذي خلق تينك المملكتين العظيمتين «كلدة وآشور».

ولكن هذا الطريق الذي اخترق قديما تلك البلدان العظيمة لم يكن طريقًا عاديًا بل إنه كان أكبر طرق العالم القديم، والطريق الوحيد الذي كان يعمل الشرق الأقصى ومصر بأوروبا، وينقل أهل الشرق إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط حيث كانوا يذهبون على سفن الفينيقيين القوية إلى حيث شاءوا من البلاد المعروفة حينئذ.

وهكذا كانت القوافل الكثيرة لا تنقطع عن هاتين المملكتين آتية من صيداء وصور، بينما كانت السفن تنقل إليها الغلال والمصنوعات والمواد الثمينة من بلاد الحبشة، صاعدة نهري دجلة والفرات (عن طريق الخليج الفارسي).

وعلى ضفاف هذين النهرين، وعلى طول مجراهما في الصحراء، كانت حركة

التجارة سببًا في عمران تلك البنادر العديدة التي كانت بمثابة مستودعات تجارية على امتداد طريق تلك القوافل.

ولما كانت الزراعة وحدها قوام حياة مثل هذا العدد الكبير من الناس، كانت الحاجة ماسة إلى معالجة أعمال الري الواسعة لا سيما في أرض كأرض الكلدانيين يكفيها القليل من الماء ليظهر ما لها من هبات الخصب والنضارة.

على أن أهلها ما كانوا أيضًا ليضنوا بالمال أو العمل في هذا السبيل. وهكذا كانت أرض الجزيرة القلب الذي يخفق بحياة العالم القديم. ثم أنها كانت من الوجهة الجغرافية مركزًا وسطًا تتجه إليه كل العيون، حتى صارت في نظر القدماء مهد الجنس البشري. ولذلك كان هذان النهران من أهم الأسباب لاستبقاء هذا المقام. ولأنهما كانا غير كافيين، لري كل هذه الأراضي، اضطرت الأيدي العاملة إلى استيفاء ما لم تستكمله الطبيعة بتلك الأعمال العظيمة التي لا تزال تدهشنا آثارها.

ولما زالت دولة الكلدانيين والأشوريين، فإن الشعوب التي خلفتهم، وهم الفرس والإغريق، والعرب أخيرًا، انتفعوا باستخدام أعمال سلفهم، فظل لتلك الممالك شبابها القديم على رغم ما كان يمزقها من الثورات والغزوات. ولكن مركز المدنية أخذ يتنقل شيئًا فشيئًا إلى أن اكتشف «فاسكو دي جاما»(٣) و (Vasco de Gama) طريقة البحرية الجديدة التي تصل بين الشرق والغرب.

ولما كان الطريق الأول البري بطيئًا وغير مأمون، فقد قضى عليه هذا الطريق البحري الجديد. وهكذا أصبح طريق النقل المفضل هو إما بالطواف حول أفريقيا بحرا، أو عن طريق القاهرة فالبحر الأحمر، إلا القليل من القوافل

---

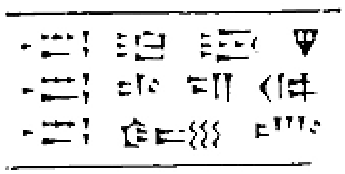
(٣) بحار برتغالي اكتشف في سنة ١٤٩٨ طريق رأس الرجاء الصالح الموصل إلى الهند.

التي كانت تخاطر بسلوك الطرق القديمة التي وطنها تحوتمس وقمبيز وإسكندر الأكبر.

وأنقرض سكان تلك الممالك شيئًا فشيئًا، وهبت الرمال من مضاجع السكون تثور على تلك المدن المنعزلة ولا تجد من يقاومها.

وعادت تلك الصحراء التي ذللتها القرون الماضية تبسط حجابًا كثيفًا من الرمال فوق تلك المدن التي شمخت في الماضي بأنفها وهزت أعطاف العزة والسؤدد.

٢- الجنس



يتعذر علينا جدًا أن نعرف بالتدقيق أصل أجناس سكان «كلدة» أو غيرها من بلدان العالم القديم.

ومهما دققنا البحث في الاكتشافات الحديثة فقد تعرض لنا فترة تخبط عندها في ليل حالك الظلام، ونضطر إلى الوقوف ونحن لا نرى هاديًا، ولا نبصر نورًا.

ولقد دل اكتشاف سر الخط الآشوري «المسماري» على أنه كان في أرض الجزيرة (ما بين النهرين) لغتان مختلفتان، لجنسين مختلفين من الناس؛ لغة نينوى الآشورية، ولغة كلدة السومارية الأكادية.

وهكذا انقشع ظلام الإبهام عن أصل سكان نينوى الأشوريين، واتضح أنهم

لم يكونوا من غير الساميين. أما الكلدانيون فإن الصعوبة لا تزال قائمة في معرفة جنسهم، وقد كانوا منذ أقدم الأزمنة ينقسمون إلى شعبين، أحدهما «سومر» والا خر «أكاد».

ولأنهم وجدوا أن اللغة «السوماريا كادية» لغة ملزنه (agglutinante)، وفيها الكثير من الشبه بلغة سكان الأورال الطائي، ذهب الظن إلى أن الكلدانيين من أصل طوراني. ولكن اتضح الآن أنه ظن بعيد عن الحقيقة..

أولًا، لأننا مهما رجعنا إلى الوصف واستنطقنا النقوش البارزة لنستحضر صورة صحيحة للكلدانيين، لا نجد بينهم وبين الطورانيين شبهًا. فلم يكن لهم. على ما يظهر، ذلك اللون النحاسي، ولا تلك الوجنات البارزة، ولا العيون المنحرفة، بل كان لونهم أسمر ضاربًا إلى السواد، دون أن يلتبس أصلهم بالزنوج. وكانوا كبار الأجسام مع رشاقة، ولهم شعر ناعم وأنوف معتدلة، مما يحمل على الظن أنهم أقرب إلى الجنس الحبشي؛ إذا شئنا أن نوازن علميًا بينهم وبين جنس آخر.

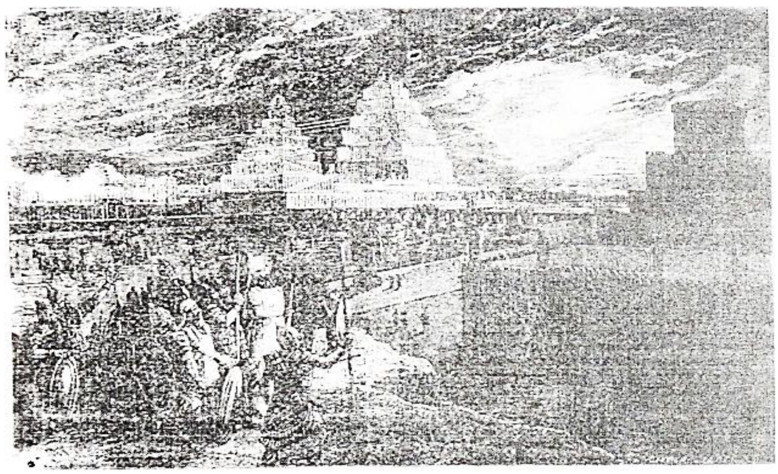
ومن جهة ثانية فإن بعض الشبه بين اللغات الطورانية واللغة الكلدانية يرجع سببه إلى شيء من النقص في اللغة الكلدانية لا إلى جوهرها. حتى أنها لما كانت لغة ملزمة كاللغات الطورانية، دخلها كثير من الكلمات الكوشية.

ولدينا دليل آخر من التوراة، وإن كان يحتمل الشك ولكن يجب أن نستأنس به أو نعتبره شاهدًا على منشأ هذه الأجناس القديمة. فقد جاء في الإصحاح العاشر من سفر التكوين (الإصحاح العاشر والعدد السادس ثم الثامن):

«وبنو حام م كوش، ومصرايم، وفوط، وكنعان روكوش ولد نمرود الذي

ابتدأ يكون جبارًا في الأرض، الذي كان جبار صيد أمام الرب. لذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب. وكان ابتداء مملكته بابل وآراء واكد وكلدة (كلنة) في أرض شنعار. من تلك الأرض خرج أشور وبني نينوى» الخ.

فإذا صحت رواية التوراة لم يبق أقل شك في أن الكلدانيين كانوا أخوة المصريين الذين تناسلوا من مصرايم، وأخوة الحبشان الذين تناسلوا من فوط. وهكذا نخرج كما خرج رولنسون (Rawlinson)، إلى أن الإنسانية مدينة بحضارتها الأولى إلى ذرية حام. ومن الأسف أن الغموض والتناقض، لا يزالان إلى الآن محدقان بالمسائل المعقدة الخاصة بنشأة الأم وأصلها.



(منظر تخيلي لما كانت عليه المعابد والتصور المشيدة على أرصفة بابل)

بينما ترى أن التوراة نفسها التي جعلت الكلدانيين أولًا من أقدم سكان أرض ما بين النهرين، عادت أخيرًا، كما جاء في سفر أشعيا، فجعلتهم مستعمرة بسيطة من مستعمرات الآشوريين:

قال النبي أشعيا؛ هذه هي بلاد الكلدانيين، التي لم تكن فيما مضى، لأن آشور هي التي عمرها وأقامها لرجال الملاحة.

ومع ذلك فإن هذه الرواية الثانية لا يصح الأخذ بها لعدة أسباب سنذكرها.

ومما يجب التسليم به هو أن الكلدانيين من أقدم شعوب العالم. فبلادهم أخت مصر الكبرى، والكتب العبرية والتوتر يؤيدان أن كلدة كانت أقدم بلد معمور، وأنها مهد الجنس البشري. فهناك تبلبلت الألسن، ومن هناك خرج إبراهيم وآشور، وهي أصل الأمر السامية.

والذي يستنتج من بعض الافتراضات الكثيرة التي عمد إليها المؤرخون لحل هذه المسألة المعقدة هو أن بابل كانت أولًا مأهولة بخليط من الأجناس يتخللهم العنصر الكوشي، ثم أخذ هذا الخليط يتجانس حتى طغى عليه العنصر السامي الذي كانت له الغلبة أخيرًا.

ومع ذلك فليس الساميون هم أول من وضع أساس المدنيات الزاهرة القديمة في أرض ما بين النهرين. فإن هذا الفضل يرجع إلى أم أخرى أعرق في المدنية، هي أمم الأكاديين والسومريين الذين استقروا أولًا عند ضفاف نهر الفرات حيث نشروا الكتابة، والصناعة، ونظام الحكم، والشرائع، والدين.

وهنا نتساءل؛ من أين جاء هؤلاء الناس؟

قال رولنسون (Henry Rawlinson)، إنهم جاؤوا من الحبشة عن طريق البحر (الخليج الفارسي)، ثم صعدوا في نهر الفرات والدجلة يحملون معهم كنوز الحضارة التي انتعشت وقتئذ عند أعالي النيل.

على أني لا أخطئ إذا جاريت ظني وذكرت أنهم إنما جاءوا من هضاب

أسيا الوسطى وهم مشربون بذكاء الطورانيين ونشاطهم.

وعلى أية حال فالذي يجب ملاحظته هو أنه، بالرغم من تغلب النسق السامي في النقوش الموجودة فيما بين النهرين، وبالرغم من أن الممالك الكبرى التي سنتفرغ لذكرها كانت تحت سيطرة وحكم الساميين، إلا أن الجنس السامي لم يكن العالم مدينًا له بحضارة الكلدانيين والآشوريين القديمة ويغلب على الظن أن الذين وضعوا أساس هذه الحضارة هم أخوة المصريين الأولين أو معاصر وهم أبناء شوهور (Sehesou-Hor) الذين عاشوا قبل الدولة القديمة، والذين، كما بلغنا عن طريق الأساطير وغيرها، قد اختصهم الآلهة ليكونوا أول الهداة إلى السير في سبيل التقدم، ومن عهدهم أخذت الإنسانية تتقدم بخطى واسعة وسريعة وثابتة.

الباب الثاني

تاريخ آشور وبابل

١- الأساطير ومصادر التاريخ

إن تاريخ أشور وبابل، أو كلدة، كان في هذا القرن، كتاريخ مصر، ووضع عناية المؤرخين. ولما حلت رموز الكتابة الهيروغليفية- هذا الاكتشاف العظيم الذي هدانا إلى ماضي وادي النيل- خلت بعدها رموز أخرى لا تقل عنها إبداعًا وهي الكتابة المسمارية (أو الإسفينية).

وهذه الكتابة الغريبة التي تستمد اسمها من شكلها ومن الزوايا التي تخلل حروفها المشابهة للمسامير، كانت كتابة الكلدانيين والآشوريين والفرس. ولقد كانت وسيلة لكتابة لغات كثيرة، ولذلك اعترض الباحثون فيها صعوبات أكثر مما لقيه الباحثون في الخط الهيروغليفي.

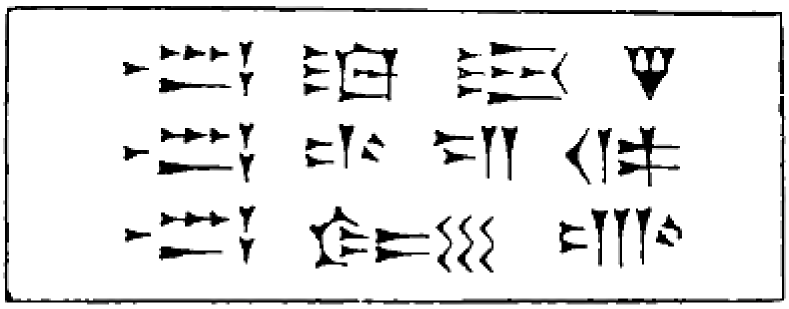
واتفق أن بعض السياح في خلال القرون المتأخرة نقلوا معهم إلى أوروبا شيئًا من هذه الخطوط المسمارية باعتبار أنها عاديات أو طلاسم، ولم يخطر ببال من رآها أن لها معنى.

ولم يكن من اهتمام أو ميل إلى تفهمها لأن تلك الأثار كانت قليلة نادرة، والحجارة الأثرية التي عثروا عليها في أسيا لم يكن يظن أنها يمكن أن تزيد شيئًا على ما أخذه التاريخ العام من مؤرخي الإغريق (وتوراة العبرانيين).

ووقف الناس عند العبارات المبهمة التي جاء ذكرها في التوراة، والأساطير التي وردت على لسان هيرودوتس، وديودورس، وسترابيون منقولة عن ستيزياس، ولم يتقدموا قيد أنملة.

وكان ستيزياس هذا، وهو طبيب إغريقي في بلاط أرتخرسيس (الثاني نيمون) (Artaxerxes Annon) [٤]، مرجع تلك الروايات البعيدة عن كل تصديق.

ولذلك لم يبق غير مرجعين وحيدين، وإن كانا مشكوكًا فيها أيضًا، وهما بعض أوراق من كتاب لكاهن كلداني اسمه بيروز (Berose) معاصر للإسكندر، وهو الذي كتب تاريخ الآشوريين نقلًا عن المخطوطات المسمارية. فكان في هذا التاريخ مثل مانيتون فيما وضعه عن تاريخ مصر.



ومما يؤسف له أنه لم يصل إلينا من هذا التاريخ سوى فقرات ذكرها أوزيب (Eusebe) ويوسف وغيرهما من المؤرخين.

وبناء على هذه المراجع الناقصة، المشكوك في صحتها، يمكننا أن نلخص تاريخ أول الممالك الكبرى الأسيوية فيما سيأتي.

فإذا رجعنا إلى أبعد مدى في الماضي وجدنا أمامنا آثار الطوفان، وذكريات

---

(٤) ملك الفرس من سنة ٤٠٥ إلى سنة ٣٥٩ ق.م. الذي قتل أخيه كورش الصغير في سنة ٤٠١ ق.م.

عن أسرة واحدة نجت من طغيانه وقد استوت فلك نوح على جبل (أرارات) بأرمينية. وكذلك برج بابل، وتبلبل اللغات (اختلاطها)، وتشتت الناس، ثم يخرج علينا فجأة من هذا الغموض البهيم «نمرود» الصياد الجبار.

وما كانت الكتب العبرية المقدسة وحدها هي التي حاكت نسيج هذه السير، فإن التواتر، والأساطير وغيرها أيضًا، نقلتها إلينا من الجزيرة والشام وبلاد العرب.

نعم.. إن الأسماء لم تستقر على أصلها. لأنهم ذكروا اسم كزيسوسروز (Kisouthbros) بدلًا من نوح، وايستوبار (Istonbur) بدلًا من نمرود مثلًا، ولكن السير كانت فيما عدا ذلك منطبقة على بعضها تمام الانطباق.

ثم إن علم التاريخ، رغم ما بلغه في أيامنا من التقدم، لا يهدينا إلى بيان دقيق عن هذه العصور الغابرة، ولذا فنحن مضطرون إلى الالتجاء إلى تلك الذكريات المبهمة لنرى من خلال الحضارات الأسيوية الأولى ما كان من أمر الانقلابات الطبيعية، والتغيرات العظيمة التي هزت الكون، ومهاجرة الأجناس وتفرقها على وجه البسيطة ثم قيام الأبطال والمغامرين من الناس الذين حرروا العالم من فوضى الهمجية بما أسسوه واكتشفوه.

ومثل أولئك الأبطال في آشور وكلدة أو مصر أو اليونان وغيرها كانوا يعتبرون كآلهة. وكل ما ذكره الأقدمون عن أصلهم متشابه، وخلاصته أن تلك العصور عريقة في التقدم عراقة خرافية، وأنه كان يدير شؤون شهر بها أشخاص في مقام الآلهة.

في تاريخ بيروز[٥] (Berose) نجد، كما رأينا في دولة الشتوهور على ضفاف

(٥) بيروز اسم كاهن كلداني وضع في القرن الثالث قبل الميلاد تاريخًا شهيرًا عن كلدة وعن آشور، ولكن هذا التاريخ قد اختفى الآن.

النيل، أن مثل هذه السلالات الإلاهية قد حكمت الكلدانيين الأولين الذين يرجع تاريخهم الى مئات الألوف من السنين.

وما كان للملوك البشرية وجود إلا بعد الطوفان، فقد ظلت أسراهم نحك نحو ثلاثين ألف سنة أو أكثر.

ولا يكاد المرء يفرغ من قراءة تلك القصص الأساطيرية، ويبدأ في مطالعة ما كان أنه التاريخ الحقيقي في كتابات هيرودوتس وديودورس وسترابون ويوسف، وكذلك التوراة، حتى يرى نفسه أمام حوادث تكاد لا تقل غرابة عن تاك الخزعبلات، مثل انقضاض نينوس (Nsinus) بجيوشه العظيمة على نصف آسيا وإخضاعها وما قامت به سيميراميس (Seiniranlis) من الأعمال المدهشة.

ويلي ذلك تاريخ من نسج الخيال عن هذه الملكة البديعة الحسن، الكاملة العقل، التي فتنت الناس، وأخضعت الشعوب، وأنشأت المدن التي لا مثيل لها، وأقامت القناطر على الأنهر، وشقت الطرق في الجبال، والتي كان موتها كولدها عجيبًا مدهشًا. ذلك التاريخ الذي سحر العقول من خلال القرون مازال يحتفظ لها بكرامتها العتيقة على رغم الاكتشافات العلمية الحديثة التي أثبتت خزعبلة قصتها.

ويستحيل الآن أن نصدق تلك الخرافات التي رويت فيما مضى عن سميراميس، بل من الصعب أن نصدق أنه كان لها وجود وشخصية على الإطلاق.

وعلى رغم افتتاننا بحقائق التاريخ، وقبل الدخول في تاريخ الآشوريين الوحشي، وما كان على عهدهم من التقتيل والتعذيب، لا نرانا نقوى على كبح جماح أنفسنا دون الشك فيما رواه ديودوروس عن سيرة تلك الأميرة الغريبة،

وألا نترسم وجه تلك الملكة التي، وإن كانت لم توجد فعلًا، فإنها تركت، ولا تزال تترك، في عقول الناس المفتونين بها أثرًا من مجدها وعظمها. وهالك ما رواه عنها:

«ما كانت سميراميس سوى ابنة رجل آدمي من معبودة سماوية، أرادت أن تستر زالتها عند ولادتها، فتركتها في الصحراء حيث كان يغذيها، سنة كاملة، سرب من الحمام. ثم التقطها الرعاة بعد ذلك فشبت ونمت وأصبحت فريدة بين النساء في الجمال.

ولقد أبصر بها ضابط آشوري عظيم، هو مينونيس (Menonex) حاكم سوريا، فشغف بها وتزوج منها. وبعد قليل رافق هذا الضابط ملكه نينوس (Ninus) في حملة على بقطريانه (Bactriane)، فأخذ سميراميس معه.

ولكن الملك وجيشه وجدوا مقاومة شديدة عند أسوار مدينة بقطرة (Bactres) حتى تراءى له استحالة الاستيلاء عليها.



(صورة تقديم الهدايا)

ولقد لاحظت سميراميس أن كل الهجمات كانت موجهة إلى الجانب

المشرف على السهل، وإلى الجهات الأخرى غير حصينة، بعكس القلعة التي لم يهاجموها مطلقًا نظرًا لموقعها الحصين. ولاحظت أيضًا أن حراس القلعة أسرعوا إلى ذلك الجانب لإسعاف إخوانهم عند الحصون الخارجية المنخفضة. فبادرت وأخذت معها نفرًا من الجند المعتادين تسلق الصخور والأسوار، ثم انسلت من طريق وعر إلى ناحية من تلك القلعة ودخلتها. ثم أعطت إشارة متفقًا عليها إلى القوة المهاجمة في الجانب الآخر، وكانت بعض نقط الدفاع فيها ضعيفة، فارتاع المحصورون من ضياع القلعة وولوا الأدبار قانعين بالسلامة.

وهكذا سقطت هذه المدينة العظيمة في يد الآشوريين...

ولقد أعجب الملاك ببسالة سميراميس فغمرها بالهدايا. ولكنه شغف بها حبًا فطلب إلى زوجها أن ينزل له عنها فيزوجه بابنته سوزان. غير أن مينونيس أبى أن يرضى بهذه المبادلة، فهدده بأن يفقأ عينيه إذا لم يذعن لإرادته في الحال. وهكذا أثر فيه هذا التهديد والحزن فشنق نفسه. أما سميراميس فتسلمت عرش الحكم بعد موت الملك نينوس، الذي يظن بعض المؤرخين أنه كان بتدبيرها، وهكذا أصبحت ملكة آشور المطلقة. فشرعت في إجراء إصلاحات عظيمة، التي لو كانت تمت لفاقت الإصلاحات التي أجراها أعظم الملوك.

واتسعت فتوحاها من صحاري ليبية إلى شواطئ الهندوس. وشدت مدينة بابل وأحاطتها بسور منيع في نصف دائرة، لا يقل طوله عن ثلاثمائة وستين ستادًا (عبارة عن ستة وستين كيلو مترًا). وكان هذا السور على مناعته عريضًا بحيث كان من السهل أن تجري فوقه ست مركبات بعضها بجانب بعض.

أما في الداخل فقد أنشأت على نهر الفرات قنطرة من خشب الأرز والسرو، يبلغ عرضها نحو ثلاثين قدمًا. ثم أقامت على ضفتيه الأرصفة بعرض ذلك السور. وشددت عند طرفي تلك القنطرة قصرين شاهقي الارتفاع، يصل

بهما نفق تحت النهر بحيث يمكنها أن تنتقل من أحدهما إلى الآخر دون أن تضطر إلى عبور النهر.

ثم أنها أقامت في وسط المدينة هيكلًا فخمًا للإله بيلوس[٦] (Belus) الذي كان الإغريق يخلطون بينه وبين إلاههم جوبيتر (إلاه الآلهة).

أما الحدائق المعلقة، إحدى عجائب الدنيا السبع، المنسوبة في بعض الروايات إلى سميراميس، فقد ذكر ديودوروس أنها من عمل أمير من نسل هذه الملكة أنشأها لزوجته الفارسية على مثال آكام ومروج بلاد فارس المكسوة بالخضرة.

على أن هذه الأعمال الرائعة لم تحل بين سميراميس وبين ملاهيها، فلم تنس ما كانت عليه من الجمال الباهر.

ولقد قال ديودوروس أنها أحجمت عن الزواج الشرعي حتى لا يفلت من يدها صولجان الحكم. غير أنها كانت تختار للذتها أجمل رجال جيشها، حتى إذا قضت منهم لبانتها أعدمتهم....

أما نهاية سميراميس فقد أحاط بها الغموض كما أحاط بنشأتها. فقد اختفت فجأة من الوجود. وفي أسطورة، استحالت إلى «حمامة»، حتى أن الآشوريين أخذوا يقدسون هذا الطائر لهذا السبب.

وقد ذكر ديودوروس أن بابل لم تكن المدينة الوحيدة التي شيدتها سميراميس، بل إنها شيدت مدنًا أخرى كثيرة ومن ضمنها مدينة إكباتان (Ecbatane) التي اختارت لها بقعة تروقها.

---

[٦] أبو زوجها الملك نينوس، كما ورد في أساطير الآشوريين.

وربما كان ما أمرت هذه الملكة العجيبة بأن يحفر على قبرها لا يقل في الأهمية عن بقية أعمالها العظيمة وهو:

"إن الطبيعة خلقتني امرأة، ولكن أعمالي ساوتني بأشجع الرجال. فلقد جلست على عرش نينوس الذي يمتد ملكه شرقًا إلى نهر هينامانيس (Hinananes)، وجنوبًا إلى بلاد البخور والمر، وشمالًا إلى حدود بلاد الساس (Saces) وسوجديان (sogdiane). ولم يتح لآشوري قبلي أن يرى البحار، أما أنا فرأيت منها أربعة لم يمخر عبابها أحد لبعدها. وجعلت الأنهر تجري حيث أريد، في كل مكان نافع، فأصبحت الأرض كثيرة الخصب، وكذلك أنشأت القلاع والحصون المنيعة، وشققت بحديدي في الصخر طرقًا ومسالك لمركباتي لم تقع عين حي، حتى الحيوانات المفترسة، على مثلها".

"ومع ذلك لم تمنعني هذه المشاغل من أن آخذ قسطي أيضًا من اللهو والحب".

وإذا كنا قد وقفنا قليلًا عند هذه الرواية التي أصبحت الآن أسطورة لا يقبلها التاريخ، فلأنه لا يمكننا الكلام على آسيا القديمة قبل أن نلقي نظرة عاجلة على هذه المرأة العجيبة.



(جني آشوري مجنح)

ولقد ظلت بابل سيدة آسيا الوسطى، تشبه في الحقيقة تلك المرأة، التي روت الأساطير أنها هي التي شيدتها، حتى أنها كانت مثلها متكبرة، شهوانية، شديدة الطمع والقسوة، مولعة بجمال الفن وجلائل الأعمال، تواقة إلى قهر الطبيعة وحب الناس.

فبابل، كسميراميس، دفعت مثلها الأنهار تجري حيث كانت تشاء، ومثلها

أقامت الحصون والقلاع والأسوار، وشقت الطرق في الصخور. وحاكها في كل شيء، حتى في الغموض الذي ران على نشأتها ونهايتها، فلم يتمكن أحد من معرفة العصر الذي شيدت فيه ولا اليد التي وضعت حجر أساسها. وها هو الشغف البشري يدفع الناس الآن عبثًا إلى رفع هذا الكفن الرملي عنها، ولكنهم لم يقفوا بعد على سر عظمتها ومجدها إلا على وجه التقريب.

إن سيرة سميراميس لم تخل من معنى. وهبها كانت خرافة، فإننا لا نملك إغفال الكلام على صورها المهيبة التي خلدها التواتر، وجعل لها حياة أبقى من حياة كل الملوك الذين صاغ صلصال ما بين النهرين تماثيل وجوههم الحجرية. وهي ما زالت، وستبقى إلى الأبد صامتة خرساء.

ومن الصور التي أعقبت سميراميس ونقلتها إلينا الأساطير صورة ساردنايال (Surchilliaiale) الشهواني المخنث، وسنحاريب (sentellerin) الذي يروي أن ملكًا من ملائكة الله أفنى جيشه، ونبوخذ نصر (Naluethodonosor) الذي قضى عليه كبرياؤه أن يمسخ في صورة دابة ترعى عشب الحقول، وبلثاضر(Balthazar) الذي خيل إليه أن يدًا خفية أخذت تخط أمامه كلمات مرعبة مخيفة[٧].

على أنه لم يبق لدينا إلا القليل من هذه الأساطير كلها، بعد أن عم الحفر سهول الفرات ودجلة، وهدانا إلى بعض حقائق وتواريخ ممالكها القديمة، بفضل العقول العاملة الجبارة التي وفقت إلى حل رموز ما كشفوه من الآثار.

وكان أول هؤلاء العاملين إفرنسيا هو المسيو إميل بوتا (قنصل فرنسا في الموصل). فإنه في سنة ١٨٤٣ كان له شرف اكتشاف قصر آشوري مدفون

---

[٧] سفر دانيال (من التوراة) الإصحاح الخامس والعدد الخامس وما بعده.

تحت الرمل، ظهر أنه قمر سارجون الثاني (Sargon) الأكادي القريب من المدينة المعروفة الآن باسم خورزا باد (Khorasan). ولقد انفصلت تحت معاول الفعلة أجزاء مهمة من طلاء الجدران كانت مغطاة بنقوش بارزة بديعة، وكتابة لم يفهم لها معنى إلى الآن.

وكان بوتا يحسب أنه بهذا الاكتشاف قد وفق إلى كشف الستار عن نينوى، ولكنه كان مخدوعًا وإن كان هذا القصر قريبًا (١٤ميلًا) من أطلال تلك المدينة القديمة.

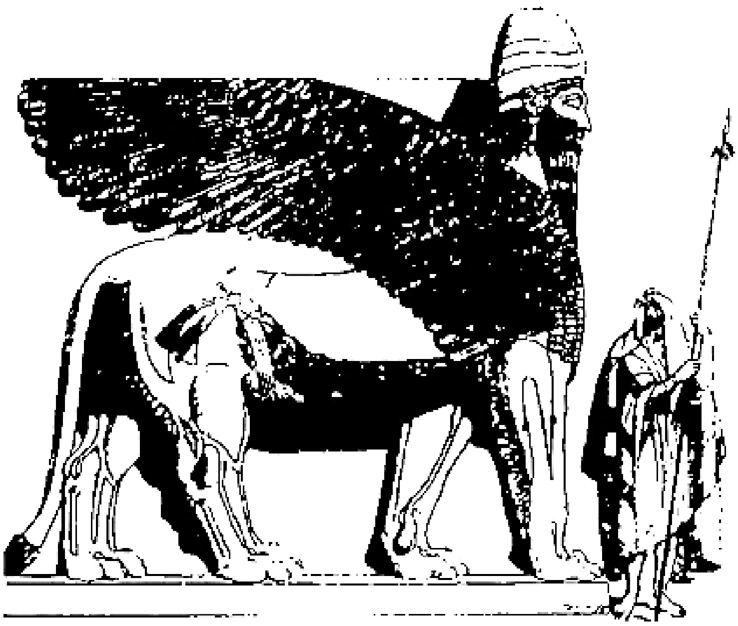
ولسوء حظه حالت السياسية بينه وبين مواصلة مساعيه، لأن ثورة سنة ١٨٤٨ اضطرته إلى العودة إلى بلاده، فخلفه إنكليزي هو المستر لا بارد الذي كان له فضل الاهتداء إلى عاصمة آشور، التي ظلت زمنًا طويلًا سيدة أسيا كلها.

ومن ذلك العهد سارت أعمال الحفر سيرًا حثيثًا في جنوب وشمال الجزيرة (ما بين النهرين)، فهدتنا إلى قصور شامخة بديعة، وفن كان إلى ذلك العهد مجهولًا، ودور كتب كاملة، قام الآجر فيها مقام الرق والبردي، وكلها شواهد على أن مدة راقية سبق أن أزهرت في تلك السهول التي أصبحت مقفرة الآن.

وهاج هذا النجاح طمع إنكلترا؛ فواصلت جهدها في البحث والتنقيب، حتى أصبح المتحف البريطاني يملك الآن من هذه الأثار مجموعة نادرة لا مثيل لها في المتاحف الأخرى ومع ذلك لم يكن هذا كل شيء. فإن تلك الآثار الخطية العظيمة، وما حوته من أسرار السمر الغابرة، ظل لغزًا من الألغاز زمنًا طويلًا.

وكاد الأمل يخيب من حل رموز هذه الخطوط المسمارية، المخالفة لغيرها من الخطوط، والتي هي مفتاح لغات لم تنطق بها شفة من قرون عديدة. وتلك

الألغاز التي كان يظن أنه لا يمكن أن يكشف اللثام عنها بغير موجزة من مجزات العلم، وقف أخيرًا على كنهها علماء موفقون أمثال جروتفند، وبورنوف، ولاسين، ورونسون، وأوبيرت الذين بفضل عبقريتهم، وجلدهم، وتضحياتهم وضعوا في أيدينا مفتاح الباب الذي ندخل منه إلى مجاهل ذلك التاريخ وتلك الحضارة التي كان يحوم الشك حول وجودها.



(معبود أشوري برأس بشر وجسم أسد)

فلم يصاب بعد ذلك الوقوف على ماضي الكلدانيين والآشوريين البعيد، لأنهم هم أنفسهم الذين تكفلوا بأن يقصوا علينا أخبار حروبهم، وأعمالهم، ومطامعهم، ومغامراتهم، واكتشافاتهم، وأحقادهم، وحبهم، وآلامهم، وأفراحهم.

نعم إن الصحائف التي تركوها لنا لم تحل رموزها كلها إلى الآن، ولكن

المستقبل كفيل بإماطة اللثام عنها. وما في أيدينا منها كاف لأن يبعث هذه الأم البائدة من قبورها؛ وهو ما سنعالجه في الصفحات التالية (إن شاء الله).

٢- ممالك ما بين النهرين الأربع

إن سكان ما بين النهرين (أرض الجزيرة وغيرها) الأقدمين، قسمان: الكلدانيون وعاصمتهم بابل على نهر الفرات، والآشوريون وعاصمتهم نينوى (على نهر الدجلة).

أما تاريخهم الذي أتفق على أنه يبدأ منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح، فينقسم الي أربعة عصور، كانت في خلالها كل عاصمة من تينك العاصمتين لها الأرجحية على الأخرى.

وهذه العصور هي:

١- عصر الإمبراطورية الكلدانية الأولى، ويبدأ منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح، وينتهي في القرن الثالث عشر قبله.

٢- عصر الإمبراطورية الأشورية الأولى، من عهد غير معلوم، إلى ألف سنة قبل المسيح.

٣- عصر الإمبراطورية الآشورية الثانية، من منذ ألف سنة، إلى سنة **٩٢٠** قبل المسيح.

٤- عصر الإمبراطورية الكلدانية الثانية، من سنة **٩٢٠** إلى سنة **٥٣٣** قبل المسيح.

ولقد كان المقياس الذي أمكن به الوصول الى هذا التقسيم هو تغلب إحدى العاصمتين على الأخرى كما سبق الكلام. فكانت الغلبة أحيانًا لملوك نينوى وأحيانًا لملوك بابل. ولكن جوهر التاريخ من حيث ذكائهم ومدنيتهم

وفنونهم واحد، حتى أن أجناسهم ولغاتهم انتهت بأن امتزجت بعضها بعض، فأصبح من الصعب الاهتداء إلى أصل جنس كل منهما ولغته ما لم رجع في ذلك إلى أبعد العصور.

على أن بابل لم تتفوق إلا من حيث التهذيب العقلي، أما نينوى فكان تفوقها بقوة جيوشها.

وكان الكلدانيون أعرق الناس في المدنية، ومنهم اقتبس جيرانهم قواعدها وأساليبها. أما رطانتهم فكانت "السومرو أكادية" وظلت هذه وقتًا طويلًا اللغة المقدسة التي يتكلم بها أهل ما بين النهرين.

وكثير من النصوص المكتوبة بهذه اللغة في الآشوريون بترجمتها والمحافظة عليها.

واعتاد الآشوريون أن يكتبوا باللغتين معًا، فكانت اللغة القديمة تظهر إلى جانب رطانة نينوى حتى أصبحت هذه الرطانة هي المتداولة في كل وادي دجلة والفرات.

وكان هم الساميين في آشور منصرفًا في أول الأمر إلى الحروب والغزوات، حتى أن آسيا القديمة كانت دائمًا عرضة لحملات الملوك النينويين، وهكذا لم تخل شوشن[٨] وبابل وأرمينية وفينيقية وسورية وفلسطين وشمال بلاد العرب من حكم تغلث فلاصر (reglauthpalazar) وسرجون وسنحاريب وآشور بانيبال.

وما كان هؤلاء المغيرون الغلاظ القلوب يبتعدون حتى تهب تلك البلاد المقهورة إلى رفع رأسها واسترداد استقلالها وهي تحسب نفسها بعيدة عن متناول

---

[٨] وبالفرنسي Subiane أو Susa أو عيلام Elan وهو اسم بلاد كانت في جنوب ما بين النهرين عند رأس الخليج الفارسي، وتحدها: شمالًا آشور، وغربًا بلاد فارس. وعيلام أيضًا اسم أكبر أبناء سام. وشوشن أيضًا اسم أقدم مدن الشرق (راجع دانيال ٨-٢ وتكوين ٢٢-١٠ وارميا ٤٩-٣٥)

أيديهم، ولكنهم سرعان ما كانوا يعودون فينقضون على العصاة ويسومونهم أشد العذاب والتنكيل، ويمثلون بهم أقبح تمثيل، كما هو مذكور في آثارهم بكل تفصيل، كأنه كانت تلك الأفعال من بعض أسباب الفخار والمجد.

ولا تختلف وحشية الآشوريين عن توحش اليهود في تاريخ البشرية، فقد كانت أسوار مدنهم تزين برؤوس قتلى حروبهم وغزواتهم، وجلود أسراهم المسلوخة عن أبدانهم وهم أحياء. وكان ملك نينوى يضحك ويلهو مما تقشعر من هوله الأبدان، مثل منظر الصفوف الطويلة من التعساء الذين كانوا يعانون سكرات الموت فوق الخوازيق. وظلت عصور الدول الأربع على هذا النحو من عصيان يعقبه غزوات تتجدد فيها هذه المجازر والفظائع.

وإذا كان الأشوريون لم يتركوا مخطوطات أو مبتكرات فنية أو آثارًا تدل على مدنية زاهية، فإن كلمة واحدة (همجية) تكفي لوصف عصرهم الأرجواني، ثم ندعهم بعد ذلك ينامون إلى الأبد في مجدهم الوحشي الدامي.

وقد لا نلام إذا وافقنا مسيو لنورمان على قوله: "إن الهمجية خير ألف مرة من مدنية كهذه" ومع ذلك لا يسعنا إلا الإعجاب بالجمال الفني الذي ينعكس من تلك النقوش البارزة، ومن مهارة الأيدي التي نقشتها، لأن عيوننا تقف مبهورة أمام بقايا قصور الآشوريين. وتزداد دهشة حين نفكر في أن الإنسانية مدينة لوحشية تلك العصور العاقلة، بما أفاضت عليها من نعم العلوم وحسنات الفنون، التي ابتكرتها عقول هؤلاء العباقرة.

وربما كان العامل الوحيد الذي رفع تاريخ نينوى إلى مستوى أفخم المآسي هو مزاحمة مصر لتلك المدينة الآسيوية العظيمة. لأننا نرى أسرة تحوتمس تتقدم حتى نهر الفرات، ونرى سنحاريب وآشور بانيبال يهبطان وادي النيل حتى طيبة.

ومن جراء هذا الصراع استهدفت الأمم التي بينهما للغزو والسحق (كأنها بين كفي الرحى)، حتى اضطرت سورية وفلسطين أن تحالف إحدى هاتين القوتين العظيمتين لتتحرر من نير استعباد الأخرى، ولكنها في الحقيقة كانتا تخرجان من حكم لتدخلا تحت حكم آخر، وتظلان عرضة لعداوة الدولة الأخرى، حتى أن قائد سنحاريب كان يقول لضباط إيزيخياس (Ezechias):

«على من تتكلون في مقاومتي؛ فهل أخذتم عهدًا من ملك مصر على مظاهرتكم إنه كالقصبة المرضوضة تجرح يد من يتوكأ عليها ولا تجديه فتيلًا».

ولقد كان طريق مجدو (Mageddo) مفتاح النيل الوحيد إلى الفرات. وهو طريق مرت عليه القرون كما مر عليه فرعون وهلاك نينوى والنصر يعقد فوقه تارة لأحدهما وطورة للآخر. وكم من المواقع استعرت نارها حول هذه القلعة، وكم من المرات امتلأ هذا الطريق بجثث القتلى.

ولا نتعرض هنا لذكر تفاصيل هذه الحروب، لأنها أصبحت معروفة بكل أطوارها وتواريخها وأسماء قوادها ووحدات جيوشها، وأحوال النصر والهزيمة التي مرت بها. كل ذلك وجد مخطوطًا بفضل ذكاء آشور العملي وعنايتها ونظامها وإن كان نظامًا خشنًا قاسيًا. فقد أنشأت ترتيبًا خاصًا للذابح، وأفردت سجلات وافية لأنواع التعذيب والتنكيل.

على أن هذه البيانات كان إلى جانبها كثير من اللعنات مستنزله غضب الآلهة وسخطهم على كل من يمس شواهد عظمة نينوى وانتصاراتها بسوء.

واليوم قد نفضت هذه الآثار عنها ثوب الاحتجاب، ولاحت لنا رائعة في وضح النهار بفضل ذلك الآجر السليم الذي كان دفينا في بطون الرمال. وهو أكبر معين لنا على نشر أخلاق أولئك القوم الذاهبين وفنونهم وعلومهم وحياتهم

وخواطرهم. وفيما يلي نوجز الكلام على الحوادث الرئيسية التي لها علاقة بهذه الدول الأربع.

الإمبراطورية الكلدانية الأولى

(من سنة ٤٠٠٠ إلى سنة ١٣٦٠ قبل المسيح)

ليس لهذا النعت بالإمبراطورية «الكلدانية الأولى» التي تشمل الستة وعشرين قرنًا الأولى من تاريخ كلدة أقل قيمة تاريخية، وعبثًا قضي الوقت في معالجة الآراء التي لدينا عن موضوع كهذا بالتغيير والتبديل، لأنها ليست بذات أهمية بالنسبة إلى تاريخ الحضارة، وحسبنا القول إنه لم توجد قط إمبراطورية كلدانية أولى، وإنما كانت مجموعة ممالك كلدانية. وكل ما نعلم عن هذا العصر من المخطوطات التي وجدت إلى الآن يدلنا على أن هذه البلاد كانت منقسمة إلى ولايات مستقلة، وأسر متناحرة لا تنقطع من بينها الحروب، وكانت كلها سجالًا. أما تأسيس إمبراطورية كلدانية متجانسة فلم يخطر قط بال ولاية من تلك الولايات ولا أسرة من تلك الأسر. ولذلك كان هذا العصر السحيق الذي نكتب عنه إنما هو صورة من انحصار الحكم في أيدي أشراف كلدة (نظام الإقطاعات). ولقد سبق هذا العصر عصور الملوك الفاتحين في الشرق القديم كما في الغرب الحديث.



(صورة تخيلية عن وليمة من ولائم آشوبانبيال)

نعم .. إن معرفتنا قليلة عن ممالك الكلدانيين الأولى التي تتصل بعهد نمرود الأساطيري، حين كان قادة بابل وغيرها مستقلين يحملون اسم باتيزي (Patesi)، أي القساوسة أو الكهنة الملوك.

على أن بعض آثارهم، والحجارة الناطقة بما عليها من الخطوط والنقوش، هي التي هدتنا تقريبًا إلى ما بقي من ذلك العصر الطويل، وكلها يدل على أن الكلدانيين كانت لهم مدنية زاهرة رائعة، قد تعادل تلك التي كانت تتألق وتتئذ فوق ضفاف النيل، وأن ملوكهم كانوا يشيدون الهياكل العظيمة في تلك العصور العريقة في القدم.

وأول ملاك هدتنا إليه تلك الأثار هو الملك ساروكينو (Sarrukinu)، أو سرجون القديم (الأكادي). كان متسلطًا على أكاد (Accad) وغزا سومر، وشيد في أجادي (Agade)، عاصمة ملكه، معبدًا شهيرًا بقي نحو ثلاثة آلاف سنة، ورممه من بعده نابونيد (Nabonid) أحد ملوك بابل المتأخرين.

وهذا كان الدليل الأخير الذي بنينا عليه حكمنا بأن الملك السالف قام سنة ٣٨٠٠ قبل الميلاد. لأن نابونيد قال فيما نقشه على أحد الأسطوانات الصلصالية التي وجدت مطمورة في جدران هذا الهيكل الذي رممه؛ أن أعمدة هذا الهيكل لم يرها أحد منذ ٣٢٠٠ سنة. وقد عاش نابونيد قبل المسيح بخمسمائة وخمسة وخمسين سنة، وبناء عليه يكون قد مضى على هذا الهيكل ٣٨٠٠ سنة.

على أن ملوك الكلدانيين الذين كانوا من أبرع المشيدين للمدن والمعابد كانت لهم كذلك لغة راقية وأسلوب كتابي متقن، حتى أن أقدمهم وهو ساروكينو، السالف الذكر، وضع في اللغة "السوماروأكادينيه" مؤلفات في السحر والعرافة. ولقد ترجم أشور بانيبال، آخر ملوك نينوي، هذه المؤلفات بعد تأليفها بنحو ثلاثين قرنًا.

ثم إن النذر اليسير الذي نعلمه عنهم يدل على أن عمرهم سبق بزمن قصير عصر بناء الأهرام المصرية. وأن هذه المنطقة من المعمورة كان لها مدنية راقية منذ أقدم الأزمان. ومع ذلك فإن آثارها لا تسمح لنا، لسوء الحظ، أن نتجاوز الحد الذي وقفنا عنده من الكلام عليها.

ولقد ظلت الأسفار صامتة عن هذه القرون الستة والعشرين حتى اكتشفت المخطوطات المسمارية القديمة فزحزحت عن وجهها النقاب، وأرتنا أن كلدة كانت منقسمة إلى عدة أسر، وذكرت لنا أسماء بلدانها الشهيرة "كريدو"

التي كان لها هيكل فم لم يبق منه الآن غير كومة من التراب لا يزيد ارتفاعها عن ستين قدمًا، وكسير تللا (تل– لوه) التي عثر فيها "سيورسارزيك" وعلى مجموعة نفيسة من تماثيل بلا رؤوس محفوظة الآن بتحف اللوفر. "وأور" وطن إبراهيم الخليل التي كان لها ملوك قبل المسيح بأربع وعشرين قرنًا.

ومن أكبر حوادث هذا الأمر الذي دام ستة وعشرين قرنًا حادثة تركت أعمق أثر وهي إغارة العلميت (أعجام بيروز) الذين انحدروا من شرق دجلة وجعلوا عاصمة ملكهم شوشن (Susan) قبل الميلاد بألفين وثلاثمائة سنة، حيث نقلوا إلى هياكلها تماثيل الآلهة، مثل آلهة «نانا» التي أخذوها من هياكل الكلدانيين. ولكن «آشور بانيبال» استردها بعد ذلك بستة عشر قرنًا.

ونحن نعلم أن هذا الفاتح استولى على شوشن قبل المسيح بستمائة وستين سنة. وأنه ذكر في كثير من مخطوطاته أن تلك التماثيل التي استعادها ظلت في الهياكل الأجنبية نحو ألف وستمائة سنة. فيرى من ذلك أن تلك الإغارة يرجع عهدها إلى ٢٣٠٠ سنة قبل الميلاد. وبمثل هذه الطرق الملتوية تمكننا بكل مشقة من تعيين بعض تواريخ هذا العصر الغامض المضطرب.

وتلا تلك الغارة غارات أخرى. وكانت كلدة مقسمة إلى عدة ممالك صغيرة فكان ذلك سببًا لوقوعها أخيرًا فريسة للغزاة الأجانب. ومن المخطوطات التي عثرنا عليها عرفنا أن ملك الكلدانيين استمر إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، حينما سقطت كلدة تحت سيادة نينوى.

وإلى الآن لم يعرف كيف كان هذا السقوط. فقد بسم الحظ لآشور وتغلبت على سائر المدن وخضعت آسيا لسلطة سيد واحد.

الإمبراطورية الآشورية الأولى

(من عهد غير معلوم إلى ١٠٢٠ سنة قبل المسيح)

إن أسطورة نينوس وسميراميس ربما كان محلها صدر هذه الدولة، ولكن حلقات التاريخ الآشوري لا تذكر عنها شيئًا حتى ولا بطريق الإشارة. ولعل هذه الأسطورة من مخترعات بلاط الفرس حيث التقطها ستيزياس.

وكان يرى الآشوريون أن الإله آشور هو مؤسس دولتهم وأن عاصمتها الأولى كانت "الأصر" المعروفة الآن بقلعة شرغات، وظلت كذلك طول عهد هذه الإمبراطورية، ولكن صدر هذا العهد كان غامضًا مجهولًا. وخلاصة ما يعلم عنه أن مصر في غضونه بلغت أوجها من القوة الحربية، حتى أن تحوتمس الأول وصل إلى كاركميش. وأن تحوتمس الثالث فرض على ملك «الاصر» خراجًا يدفعه إليه، وأن أمنحوتب الثاني استولى على مدينة نينوى ثم عبر نهر دجلة.

ولقد ظهر على أثر ذلك أول وأكبر الملوك الغزاة الذي أعاد إلى آشور مجدها العظيم. وهذا الملك كان اسمه «تغلاث فلاصر الأول»، وكان لا يقل عن نمرود همة وقوة وبأسًا، فأخضع نحو اثنين وأربعين شعبًا.

ولكن الآثار الحجرية المنقوش عليها وصف فتوحاته وقسوته لم تذكر شيئًا عن خاتمة ملكه. ويظهر أن بابل، المدينة الكلدانية التي أخضعها، عادت فاستردت ما كان لها من الحرية والمقام. وهكذا أصبحت آسيا ميدانًا لحروب يتنقل حظ الغلبة والعظمة فيها بين آشور وكلدة.

ويعد «تغلاث فلار» (Teglathphalazar) أول وأشهر ملوك الدولة الأشورية. ولم يحفظ لنا التاريخ إلا أسماء بعض أسلافه من الملوك، وفيما عدا ذلك ألبسته الأيام ثوبًا من الخفاء والغموض استمر طويلًا إلى أن عاد إلى

الظهور حبها ظهرت الأسرة الجديدة وأسست الإمبراطورية الأشورية الثانية التي ظلت عاصمتها سيدة بلدان آسيا.

الإمبراطورية الآشورية الثانية

(من سنة ١٠٢٠ الى سنة ٦٢٥ قبل المسيح)

منذ نشأة الإمبراطورية الأشورية الثانية جرت مدينة "الاصر" عاصمة آشور القديمة، واتخذ الملوك مدينة «كالح» (Fatah) بدلًا منها لإقامتهم.

وهذه المدينة (كالح) التي جملها أولئك الملوك كانت واقعة على نهر دجلة عند ملتقاه بنهر الفرات العظيم، أما الآن فاسمها «نمرود» وقد ظهر من أعمال الحفر المستمرة فيها أنها حافلة بالعاديات والآثار القديمة.

ولم تحافظ كالح على مركزها كعاصمة الإمبراطورية إلا وقتًا قصيرة لأن "آشور ناصر بال" ثامن أو تاسع ملوك الإمبراطورية الثانية استبدل بها نينوى، وكان أول ملك في عصره عاد إلى فتوحات أسلافه الأقدمين.

وهكذا أخذت هذه المدينة التي لا تحصى موارد غناها وثروتها، والتي ذكرها النبي ناحوم، تنمو وتتسع حتى أصبحت سيدة بلاد الشرق، وبزت ضرها المصرية الشامخة "طيبة".

ولقد كان ظهور هذه الإمبراطورية الثانية فاتحة عهد جديد لتحديد تسلسل سنوات التاريخ، وذلك لأن الآشوريين كانوا يطلقون على كل سنة اسم الموظف العظيم البارز فيها، وهكذا كانوا يسمون أول سنة من سني حكم كل ملك باسمه.

ولقد كان "آشور ناصر بال" وأعظم الملوك الذين جمعوا بين الفتوحات وإقامة الآثار. فإنه دوخ كل البلاد التي كانت على جانبي مجرى الفرات الأدنى

والمتوسط، وفتح بابل، وغزا سورية وفينيقية، حتى أن مصر كانت تهابه وتحاول مرضاته. وقد أكره كل ما ضمه إلى ملكه على إطاعته والخضوع له.

وحذا حذوه "شلمناصر الثالث" فكان لا يكف عن الحروب التي هي من أعمال الآشوريين. وهكذا كانت نينوى لا تنتهي من حرب إلا لتهيأ لحرب أخرى، لأن الممالك الخاضعة لها كانت كلما آنست فتورًا في نشاطها الحربي ثارت ضدها وتألبت عليها، خصوصًا بابل التي كانت لا تخضع لنينوى إلا مكرهة مرغمة.

وخلفه بعض الملوك الذين لم يكونوا على شاكلته، فضممت هيبة نينوى في عيون الخاضعين لها وكان من جراء ذلك (على رواية إغريقية) أن هبة اثنان جريئان أحدهما فارسي اسمه أرباس (Arbace)، والثاني بايلي اسمه (Belesis) بيليزيس وجمعا عدة قوات من الكارهين المتذمرين وحاصروا بها عاصمة أشور.

وظن سارونابال ملكها الشهواني المنهك أنه في مأمن وراء أسواره المنيعة، متكلًا على ما ذكره له العرافون من أنه لن يكون في خطر إلا إذا كان النهر أيضًا من جملة الثائرين عليه. ولكن حدث بعد ثلاث سنين أن هطل المطر غزيرًا ففاض دجلة فيضانًا لم يسبق له نظير، وفتح في سور المدينة ثغرة دخل منها المحاصرون، فنهض الملك يدافع ويكافح حتى إذا يأس تقهقر إلى قصره هو وأزواجه وأولاده وحاشيته وكنوزه ثم أشعل فيه النار، على ما جاء في الأساطير الإغريقية.

على أن هذا الأفول الذي أصاب نجم نينوى لم يلبث أكثر من نصف قرن، فلم تأت سنة ٧٤٥ ق. م حتى تبوأ عرشها ملك عظيم همام هو "تغلاث فلاصر الثاني"، فعاد إليها عهد الانتصارات الحربية الأولى، وأصبح الجيش قبلة أهلها يبالغون في تكريمه وتعظيم شأنه. وبعد موت هذا الملك ووفاة "شلمناصر

الخامس" بعده بلا عقب، ولوا عليهم أكبر قوادهم، سرجون، الذي أسس أسرة جديدة كانت من أكبر الأسس الغازية في العالم، فأخضع كل الممالك القديمة التي كانت تابعة لنينوى وضمها إلى دولته من جديد، وأضاف إليها مملكة إسرائيل، وجزيرة قبرص، وفلسطين، وأرمينية، وجزء من بلاد فارس.

ولكي يخلد إلى ما شاء الله ذكرى حكمه المجيد شيد قصره الفخم الشهير باسم خورازاباد، وهو أول قصر اهتدى معول "بوتا" الى اكتشافه حوالي سنة ١٨٥٠ أما "سنحاريب" و "اسرحدون"– من سنة ٧٠٤ إلى سنة ٦٦٧ قبل المسيح– فقد بذلا جهدهما في المحافظة على هذا الملك الواسع الذي كان الضعف يتغلغل في طياته لانعدام التجانس والتألف بين شعوبه.

وشهر سنحاريب الحرب على حزقيا ملك يهوذا، ثم انحدر إلى مصر حيث ضرب خيامه أمام "بيلوز" (Peluse) ولكن كارثة ظلت مجهولة الى الآن اضطرته إلى التقهقر والتعجيل في العودة إلى بلاده آشور حتى إذا بلغها لقي حتفه على يد أبنائه أنفسهم.

وكان حفيده آشور بانيبال همامًا فرفع نينوى إلى ذروة قوتها ومجدها وكان أول ملك دوخ مصر كلها ولو وقتًا قصيرًا وانتقم من طيبة بمثل ما انتقم تحوتمس من نينوى فيما سبق.

ويظهر أن الحظ أراد أن يخدم هذا الملك فيمحو عن أرض ما بين النهرين عار الحروب الماضية، لاسيما التي شهرها العيلاميون على بابل. فتابع فتوحاته حتى شوشن فاستردها بعد أن ظلت في يدهم من سنة ٦٦٠ قبل المسيح، كما استعاد آلهة الكلدانيين الذين نهبوها من ستة عشر قرنًا.

ولم يكن هذا الملك القوي غازيًا فاتحًا فحسب بل كان أيضًا محبًا للعلوم

والفنون، فرفع منارها، وأتم بناء قصر سنحاريب في نينوى حيث كان الفن الآشوري قد بلغ على درجات الإتقان، ثم جمع مكتبة عامرة يتحفنا الآن علماء اللغات القدية بالشيء الكثير من فيض كنوزها.

وهذا العهد الذي بلغت فيه نينوى قمة مجدها كان أيضًا فاتحة العهد الذي سقط فيه صولجانها، فاضمحلت تحت حكم ابن أشور بانيبال نفسه.

وكانت إمبراطورية أخرى فيه قد نهضت في الشرق، هي إمبراطورية "مادي"، وباتحاد ملكها سياجزار مع بابل ومصر تمكن من قلب هذه العاصمة التي طأطأ العالم رأسه أمامها قرونًا طويلة.

وكان سقوط نينوى سريعًا وتامًا. ولا غرو فإن الحروب المتوالية أنهكت قواها فجعلتها عبارة عن بناء شامخ واهي الأساس. فلما سقطت لم تستطع أن تنهض من سقطتها.

على أن هذه الكارثة الشهيرة، الوحيدة من نوعها في تاريخ العالم، ظلت مودعة أطباق الغموض المحزن. ولم يستطع مؤرخ قط أن يوقفنا على تفاصيلها، كان نينوى بعد أن انحلت وانسدل عليها ستار النسيان اختفت مرة واحدة من وجه الأرض، إلى أن قام معول المكتشفين يزعج رفاتها في قبرها.

ولم يكن لدينا لمعرفة الأسباب المحزنة التي قضت القضاء الأخير على هذه المدينة الرائعة سوى أقوال أنبياء اليهود التي تمت على شماتتهم بها وغيظهم منها وإنذارهم لها شديد العقاب الإلهي. فيما جاء في نبوة ناحوم بعنوان "وحي على نينوى": "إني أقطع من بيت إلهك التماثيل المنحوتة والمسبوكة. اجعله قبرك لأنك صرت حقيرًا". ومنها "هاأنا عليك، يقول رب الجنود. فاحرق مركباتك دخانًا وأشبالك يأكلها السيف، وأقطع من الأرض فرائك، ولا يسمع أيضًا

صوت لك". ومنها: "وأطفالها حطمت في رأس جميع الأزقة، وعلى أشرافها ألقوا قرعة، وجميع عظمائها تقيدوا بالقيود". ومنها: « تعست رعاتك يا ملك أشور. اضطجعت عظماؤك، تشتت شعبك على الجبال ولا من يجمع... كل الذين يسمعون خبرك، يصفقون بأيديهم عليك، لأنه على من من لم يمر شرك على الدوام؟".

الإمبراطورية الكلدانية الثانية

(من سنة ٦٣٥ إلى سنة ٥٣٣ قبل المسيح)

ورثت بابل سطوة نينوى نحو قرن، فكان لها ملك عظيم فخور مملوء بالمطامع تصدى لمناهضة سيرة سرجون وأشور بانيبال.

تسلم "نبوخذ نصر" مقاليد الملك الذي أسسه أبوه "نابو نصر" في عهده وصار من بعده بلية على الممالك الصغيرة في أسيا الوسطى، فأخضع أورشليم وقضى على شعبها بالسبي، وحمل على صور الشامخة، وبعد دفاع ثلاث عشرة سنة فتحها عنوة. وكذلك نازل نيخو ملك مصر وهزمه شر هزيمة.

ثم وقف هذا الملك يستريح من عناء الفتوحات، وانصرف إلى تجميل بابل، فبلغت هذه المدينة شأوا بعيدًا من الرفعة والمجد والفن، وفاقت نينوى حضارة وتمدنا، حتى أصبحت أعجوبة العالم القديم، وقد استعمل مؤرخو الإغريق في وصف اتساعها وجمالها أبلغ تعبيراتهم.

على أن "نبوخذ نصر" وجه همه أيضًا إلى أعمال الري في بابل، فأنشأ مراوي (مساقي) جديدة، بعد أن كرى (طهر) القديمة، ثم نشط الملاحة في الخليج الفارسي.

فحق لهذا الملك العظيم أن يفاخر بأعماله، حتى أن التوراة أشارت إلى

زهوه الذي بلغ به حد الجنون. وذكرت أن الله عاقبه على شروره فسخر دابة رعت الكلأ سبع سنين. ولعل منشأ هذه الرواية يعود إلى شخصه وهو في إحدى نوبات جنونه.

أما ابنه "بيلشاصر" فلم يعرف كيف يصون مجد بابل، فأخذت الدولة الكلدانية تضعف شيئًا فشيئًا حتى غزاها كورش (Cyrus) ملك فارس سنة ٥٣٣ قبل المسيح. وبهذه الغزوة كتب للعالم الشرقي أن يتخلص، إلى أمد طويل، من نير "الساميين".

ونحن نعرف من التوراة (دانيال، الإصحاح الخامس) سيرة بلشاصر آخر ملوك بابل وكيف فوجئ وهو في وسط لهوه، بالجيش الفارسي الذي دخل المدينة بعد أن حول مجرى الفرات.

ونعرف أيضًا خبر الحادثة العجيبة التي ذكرتها التوراة وخلاصتها، أن يدًا خفية خطت في ليلة الوليمة الفاخرة التي صنعها لعظائه على حائط القصر هذه الكلمات المزعجة: " منا منا تقيل فرسين " وهي تنذر بخراب الدولة الكلدانية، وقد تم خرابها فعلًا قبل أن يبزغ الصباح، وأدرجت في أكفان الفناء.

ولقد ذكر النبي أرميا أن صوتًا رن تلك الليلة في بابل، ثم عقبه انهيار عظيم تجاوب صداه في كل أنحاء المملكة، لأن الله قضى على بابل بالخراب، وقضى على أصوات أبنائها بالخفوت. وهكذا سقطت بابل سقوطًا لا قيام بعده: –

"سأدع أمراءها، وعقلاءها، وقوادها، وقضاتها، وشجعانها، يثملون، ثم ينامون نومًا أبديًا لا يستيقظون بعده..

هكذا قال رب الجنود".

الباب الثالث

اللغة والخط والأدب

١ - اللغة والخط

دلت الآثار الخطية التي وجد كثير منها في أرض الجزيرة على أنه كان فيها لغتان، أقدمها "السوماروأكادية" التي بها تكلم وكتب الكلدانيون الأولون، وهي عبارة عن ألفاظ كوشية في صيغ طورانية. والثانية من أصل سامي محض، وهي الآشورية التي تغلبت على اللغة القديمة حلت محلها في بابل ونينوى.

ومع انتشار اللغة الأشورية ظلت السومارية شائعة، وعني القوم بدرسها والمحافظة عليها، فكان لها مقام اللغات العالمية النبيلة التي وجب على كل مواطن مثقف أن يلم بها.

وأخذ علماء نينوى يشرحون المخطوطات الكلدانية القديمة، ويعلقون عليها كما نفعل نحن بالمؤلفات الإغريقية واللاتينية. واهتموا بوضع أصول نحوية وقواميس لفهم هذه اللغة المماته ونشرها، وتركوا لنا كثيرًا من هذه الكتب، وأهمها نراه مكتوبًا بلغة سومارية إلى جانب اللغة الآشورية. وكل ما نعلمه عن مؤلفات الكلدانيين ولغتهم إنما وصلنا عن طريق الجنس السامي الذي حل محلهم.

هكذا كانت تلك الشعوب القديمة، وأولئك الملوك الذين شيدوا القصور وأنشأوا المدن الفاخرة، قبل أن تتردد على شفاه الناس أقاصيص الألياذة والأوديسة الساحرة، تسلط على عالم عريق في القدم. وكلما عثرنا في تراب الصحاري على بعض ما تركوا من الآثار الرائعة يخيل إلينا أن عصرهم هذا كان من مبتكرات الوهم والخيال. ولكن الواقع هو أن ألفاظ "تغلاث فلاصر" و "سرجون" و"أشور بانيبال" الخشنة، لم تكن سوى أسماء ملوك من عنصر فتي، بالنسبة للعناصر التي سبقته، ظهر ليمثل بدوره مشهد من مشاهد التاريخ اللانهائي التي تعاقبت على مسرح الحياة البشرية منذ الأزل.

وكانوا هم أيضًا لا يرون في تلك الأمم التي سبقتهم أممًا جاهلة متوحشة، بل كانوا يطأطؤن لها رؤوسهم احترامًا، كما نطأطي، نحن بدورنا رؤوسنا أمام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس.

ولعلهم توهموا فيهم الإلهام فاتخذوهم قبلة ونموذجًا، وفاخروا بأنهم وارثوا مدنيتهم وحفاظها من بعدهم، إن لم يباهوا أيضًا باحتذاء مثالها والنسج على منوالها.

فلا غرو إذن أن شخصت أبصارنا إلى هذه المكتشفات التي مضت عليها القرون العديدة وهي دفينة في صدور الأزمان.

وكيف لا نذكر ما تركته مدينتنا خلف ظهرها من روائع ذلك الماضي السحيق، وما نالت من مجهودات الأجيال التي قام عليها أساس معارفنا ونحن لا نشعر بها.

فمن هم الكلدانيون القدماء الذين قبل أن نكون، وقبل أن يكون لنا فنون وعلوم وتقاليد وأديان، كانوا يفيضون على جانبي الفرات من معجزات الذكاء

والثقافة، ويعنون بحفظ آثارهم المخطوطة على الألواح الطفلية التي نجدها الآن تحت الرمال.

ومن أين جاؤوا؟ وعمن تلقوا فيوض تلك الأنوار؟

أكانوا مسبوقين بأمم أخرى ذكروها لنا في نقوشهم التي لم تزل مطمورة في أطلالهم ليهدونا إلى جذور شجرة الحضارة البشرية التي لا تفتأ تتكرر صورها على مر الأجيال؟

ربما يكون لهذه الأسئلة نصيب من الجواب متى انتهينا من حل رموز ما بقي من شوارد الآثار التي تركها لنا آشور وبابل، والتي ستميط يد المكتشفين اللثام عنها يومًا من الأيام.

على أن المكتبة الوحيدة التي أسسها الملك آشور بانيبال في قصر قويونجيك بنينوى تركت من لوحات الآجر كتلة لا تقل مساحتها عن مائة متر مكعب، تكفي سطورها لملأ ما لا يقل عن خمسمائة مجلد، كل منها يحوي خمسمائة صفحة من القياس الكبير.

على أن هذه النصوص لم تترجم كلها ولم تحل إلا رموز جزء قليل منها مكتوب باللغة السومارية الغامضة، لأن العلماء لم يقفوا تمام الوقوف بعد على أسرار هذه اللغة.

وكانت كتابة الأشوريين والسوماريين والأمم المجاورة في بلاد مادي وفارس وأرمينية على أسلوب خطي واحد هو الخط المسماري الذي سمي كذلك، لأنه على شكل المسامير والأركان مصفوف أفقيًا أو عموديًا، أو على شكل سنان الرمح.

وهذه الكتابة الغريبة، وكذلك أصل الكثير من العلوم، برجع عهدها إلى الكلدانيين القدماء، قد ظلت دارجة الاستعمال في أسيا مدة طويلة بعد سقوط بابل. واستعار الإيرانيون بعض حروفها للرمز بها إلى الأصوات، كما أن هذه المسامير الهجائية التي ظهرت في زمن كورش استمرت إلى حكم الأسرة الأرساتيدية (Arsacides).

على أن تلك الكتابة المسمارية الكلدانية والآشورية هي كتابة صوتية وليست هجائية، فلا تدل على مجرد الأصوات العادية بل على المقاطع. وأقدمها مستنبط مباشرة من الكتابة الهيروغليفية، ومن السهل تتبع الأسلوب الذي تولدت به عنها.

ولقد فعلنا مثل ذلك حين أردنا الوصول إلى طريقة استحالة الحروف الهيروغليفية إلى حروف هيراطيقية، ثم إلى خط جار.

ولكن مصر لن تتخلص قطعًا من الخط الهيروغليفي التي تعبر فيه الحروف عن المعاني، مع أن بعض ألواح الأجر الكلدانية تدلنا على أن خطهم كان يعبر عن المقاطع، وقد كان أول نموذج من هذا النوع في العالم.

ويمكن أن يقال إن كلدة رجعت الى وسط بين الخط الهيروغليفي والمسماري. جعلت حدود الحروف الدالة على المعاني في خطوط مستقيمة بدلًا من تلك الأركان. وهذا الخط الذي سمي خطأ بالخط الهيراطيقي لبث حتى حكم الآشوريين كما دلت عليه بعض الحجارة الأثرية.

ولكننا نرى في الخط المسماري الأشوري أن الشكل الدال على المقطع، والمتفرع من الشكل الدالة على المعنى، أصبح كلاهما بعيدًا عن الآخر كل البعد.

وأول تغيير طرأ على الخط الهيروغليفي أنه استحال إلى بعض خطوط مستقيمة.

ويحتمل أن الخط لم يتقدم أكثر من ذلك. وبهذا الرسم المعتدل كان ينقش على الحجارة. ولكن الكلدانيين قديمًا عكفوا على الكتابة على ألواح من اللبن اللين. وقد تكون الآلة التي استعملوها هي سبب تلك الأركان التي ظهرت في كل خطوطهم.

وهذه الآلة التي وجد منها كثير في الخرائب كانت من سن الفيل، تنهي بطرف على شكل مثلث، وبهذا الطرف كانوا يضغطون سطح الصلصال فيحصلون على الشكل الذي تكون أوضاعه المتعددة تلك الخطوط المسمارية.

وهذه الخطوط كانت عند الكلدانيين أو الآشوريين تتركب من ثلاثة أنواع من الحروف؛ الحروف الأصلية الدالة على الأصوات، ثم العلامات المتفق عليها والتي لم يكن لها قيمة صوتية إلا أنه كان يرمز بها إلى الاسم أو إلى كلمة خاصة، وحروف الدلالة، وهذه كانت توضع أمام أسماء الاعلام وتوضح ما تدل عليه الكلمة التالية لها، إذا كان أم ملكًا، أم رجلًا، أم امرأة، أم بلدة، أم شعبًا، أم حيوانًا، أم معدنًا. فكانت أشبه بالحروف الكبيرة التي تكتب[٩] عندنا في أول الكلمات الدلالة على بعض ما ذكر.

والخط الكلداني والأشوري صعب القراءة، وهو يحتوي على أكثر من ٣٠٠ حرف ليس لها معان محدودة.

وهناك صعوبة أخرى غير هذه، وهي أن الشاب كانوا يملأون الفراغ القليل بكثير من النصوص، فكانت خطوطهم دقيقة مندمجة بعضها بعض حتى أنه كان يصعب تميزها بغير مجهر.

---

[٩] أي عند الفرنسيين، وهي ما يسمونه، MAJUSCULF

أما الخطوط التي كانت على جدران القصور من الخارج والداخل، وعلى التماثيل، فقد كانت مخصصة للملوك والحوادث المهمة المتعلقة بهم.

على أهم أيضًا كانوا يستعملون أسطوانات أو قوالب مستطيلة من الطفال يخطون عليها بعض الأسماء التي لا يريدون أن يطلع عليها أعقابهم وذراريهم، فيدفنوها في مبان خاصة يشيدونها لهذا الغرض.

أما العقود التي كانت تكتب بين الأفراد فكانت تخط على ألواح من الطفال، على مثال قطع الصابون الذي نستخدمه في زيتنا.

ولكي يصونوا هذه العقود من التلف كانوا يغلفون الألواح بطبقة طفالية يكتبون عليها صورة ثانية مما كتب على الألواح المغلفة، ثم يشوونها في الأفران لتجف وتتصلب. وهكذا يظل هذا الأثر في مأمن من التلف. فإذا تشوهت بعض نصوصها أزلت تلك الطبقة الخارجية للوقوف على الحقيقة من الألواح الأصلية.

وكانت الكتب بخط على قوالب من الطفال. وقد أشرنا سابقًا إلى الكتب التي حوتها مكتبة آشور بانيبال وكانت موضوعة في غرف القصر الذي شرع جده "سرجون" في بنائه بنينوى، وأنه هو من بعده.

وروى لايارد[١٠] الذي اكتشف هذا الكنز التاريخي والأدبي العظيم، أنه رأى هذه القوالب مبعثرة في عدة غرف مركومة بعضها فوق بعض. ووجد البعض سليمًا والبعض مهشمًا. ومن الكتابات المنقوشة عليها اتضح أن تلك المكتبة كانت في طبقة القصر العليا ولكنها سقطت إلى أسفله على أثر انهياره.

---

[١٠] أوستن هنري لايارد (Austin-Henri Layard) منقب إنكليزي، ولد في باريس في سنة ١٨١٧. توفي سنة ١٨٩٤.

وأكبر جزء من هذه المكتبة يوجد الآن في المتحف البريطاني. وسنرى محتوياته فيما يلي..

ومما يجب الالتفات إليه أنه لم يعثر في الآثار الآشورية، ولا في أي جهة من أرض الجزيرة على أثر لورق أو رق، مع أنه لا يوجد أقل شك في أن الآشوريين، نظرًا لعلاقاتهم الكثيرة بالبلدان المجاورة عمومًا، وبمصر خصوصًا، كانوا لا يجهلون هذه المواد، ولا سيما ورق البردي، ولكنهم لم يستعملوه إلا في أحوال قليلة.

وكان الكلدانيون والآشوريون يهتمون كثيرًا للمستقبل، وكأنهم كانوا يعلمون أنهم يعملون للأجيال القادمة. وكثير من أسفارهم، والمواد التي استعملوها في كتابتها، يدل على شدة شغفهم بتخليد أعمالهم، وألا تمتد إليها يد التلف، حتى أنهم وجدوا الآجر أصلح لهذه الغاية، وأقل عرضة للتغير من الحجر والمعدن، لأن رمل الصحراء الناعم يغطي تلك الألواح فيصونها.

وهذه الألواح تتألف منها أحيانًا كتب واسعة متتابعة على ترتيب ونظام خاص، حتى أن آخر سطر من كل صفحة يكتب مرة ثانية في رأس الصفحة التالية لربط الصفحات ببعضها. وعشاق اللغة الآشورية الذين قضوا حياتهم وبذلوا أقصى جهدهم في حل رموزها قد نجحوا أخيرا في حل طلاسم هذه اللغة القديمة التي عفا عليها النسيان عدة قرون. وها هي الآن تهدينا إلى الأفكار والعواطف والعقائد والأجناس التي كان لها الشأن العظيم في ذلك العالم الأسيوي القديم.

٢- الأدب

قبل أن يستقر الآشوريون الساميون في أرض مابين النهرين، وبينما كانت حضارة الكلدانيين تزهو على ضفاف الفرات، وقد أفاضت على أمم الشرق، ثم الأغريق من بعدهم؛ في ذلك العصر القديم المحفوف بالغموض، كان

للسوماريين وأهل أكاد مؤلفات في الأدب.

وكان الكلدانيون لا ينشرون مكتشفاتهم أو يخلدون أخبارهم بعبارات موجزة أو بروايات مبهمة، بل كانوا يضعون في ذلك كتبًا حقيقية، ومؤلفات شاملة تتناول كثيرًا من الموضوعات التاريخ، والعلوم، والدين، حتى القصص والأساطير.

وبترجمة النصوص السومارية الأكادية القديمة قد تمكن من معرفة أصل هذه الكنوز، لأن مكتبة "أشور بانيال" مملوءة بنتف كثيرة منها لابد أنها كانت الخاطر الأول الذي ألهم الكتاب النينويين.

وكان ملوك آشور يعنون كثيرًا بترجمتها، ولكن هذه التراجم تحول بيننا وبين صحة الحكم على قيمة الأسفار الكلدانية الأدبية ما دمنا لانستطيع الحصول على غير أصول أو تراجم نينوية.

وكل ما يمكننا أن نقوله الآن، أخذًا عن الآثار الآشورية، أن الكلدانيين كانت لهم مكتبات وكتب ومدارس (دور علم) عامرة منذ أربعة آلاف سنة قبل المسيح، أي في عصر سرجون القديم الذي أشرنا إليه.

ولقد أخذ المؤرخ "بيروز" تاريخه مباشرة عن كتب بابل، لأن الإغريق يذكرون هذه الكتب، التي طالت شهرتها وذاعت، حتي أن "داسماشيوس» (Daamascius) حدثنا في رسالة "الأصول الأربعة" عن أصل الخليقة ما استنبطه من مخطوطات كلدانية وجد لها ترجمة صحيحة في مكتبة آشور بانيبال.

ومهما يكن من قيمة هذه المعلومات فلا يمكننا أن نذكر شيئًا عن مؤلفات الكلدانيين في الأدب ونكتفي بفحص ما ورد في أسفار نينوى.

وكان الأشوريون يهتمون كثيرا بصحة اللغة ووضوح الأسلوب. وأكثر كتبهم تبحث في قواعد اللغة، وتشابه الألفاظ، والكلمات الصوتية، والاشتقاق. وكانوا

يعنون اكبر عناية بلغة الكلدانيين القديمة، وقد وجدت لهم معاجم وكتب للتمرينات والتراجم، كانت على ما يظهر تدرس بالمدارس لحفظ قواعد تلك اللغة.

وآثار نينوي التاريخية الدالة على ذلك كثيرة، بعضها مخطوط على المباني أو على اسطوانات الآجر التي كان الملوك يدفنونها تحت الجدران، وبعضها مرصود في المؤلفات التي حوتها مكتبة أشور بانيال.

بما أسلوب الكتابة فإنه غير يتناول الألقاب الرنانة الضخمة في المواضيع الخاصة بالملوك، وهي تفيض بالصور والتزاويق. وتحتوي الكتب بيان السنين مرتبة ترتبًا دقيقًا محكم، ولكن ذلك بالنسبة إلى الحوادث التاريخية لا إلى الأدب.

وفي مكتبة نينوى رسائل مطولة تبودلت بين الملوك وقوادهم، أو بينهم وبين العلماء الذين كانوا يرسلوهم إلى الخارج لرصد الأفلاك.

على أننا نترك الكلام الآن على الآثار الدينية والتشريعية إلى فرصة أخرى، ونحصر بحثنا هنا في ما يتعلق بالأدب المحض، خصوصًا الأقاصيص الخرافية والاساطير.

وهذه وجد منها شيء، كثير في الألواح الآشورية التي سبق ترجمتها، ولكن بعضها مهشم. وما سلم منها يدلنا على أن أولئك القوم كانوا قادرين على تأليف القصص الخيالية، والوقوف بها عند خاتمة معقولة على رغم ما يتخللها من الحوادث المتشعبة الكثيرة التي تهز العواطف.

وأكمل هذه القصص القصة الخاصة بنزول الآلهة العظيمة "أشتار" إلى الجحيم. وهي خرافة لا تخلو من مغزى أدبي، وأسلوبها شعري راق.

أما "أستار" هذه فكانت إلاهة الحب (زهرة– فينوس) في بابل. ولما فقدت ولدها، عقدت نيتها على انتزاعه من مرقد الأموات، ذلك المرقد المختف في

أحشاء العالم الذي تحكمه آلهة الأرض.

وسنذكر لك شيئًا من هذه القصة التي تذكرنا بما كتبه "دانتي" عن الجحيم. وهذا المكان الذي يفتح القبر طريقه لنا هو:-

"المكان الذي ندخله، فلا نخرج منه

"الطريق الذي نسلكه، حينما نذهب ولا نعود

"المقر الذي ندخله، فنجد بدل النور ظلامًا

"المثوى الذي فيه نعض الأرض، ونأكل الأوحال

"حيث لا نرى النهار، وقد كتب علينا أن نبقى في الظلام"

ثم تأتي "إستار" بلا خوف ولا وجل إلى مدخل هذا "البلد الساكن" فلا يفتح لها الحارس بابه، ولكنها تتهدده، فيضطر إلى التماس الإذن في دخولها من آلاهة الأرض العظيمة.

وحينئذ يخطر الأحياء ببال ملكة الأموات، فتقابل (تعارض) بينهم وبين نفسها، والظلال التي تخيم على شعبها وتقول:

"إن مثلنا كمثل النبات المحصود

"إن مثلنا مثل الزهرة الذابلة، أما هم فكالشجرة المثمرة"

ومع ذلك تسمح بقبولها قائلة:

"اذهب أيها الحارس وافتح لها الباب، بعد أن تجردها من ثيابها، وفقًا لتقاليدنا الخالدة"- فيفتح الحارس الباب، قائلًا لها:

"ادخلي أيها الإلهة، وليكن ما أردت

"فإن هذا البلد الساكن ستفتح أبوابه لك"- وحينما تدخل من أول باب

يستوقفها الحارس، وينزع التاج الذي يزين رأسها، فتسأله:

"لماذا تخلع أيها الحارس هذا التاج الذي يزين رأسي؟" فيجيبها: "ادخلي أيتها الإلهة ولا تسألي، فهذه شريعة آلاهة الارض العظيمة".

وعند الباب الثاني ينزع قرطها، وعند الثالث ينزع عقدها، وعند الرابع ينزع طيلسانها، وعند الخامس حزامها المرصع بالحجارة الكريمة، وعند السادس أساورها وخلاخيلها، وأخيرًا عند الباب السابع يخلع أقرب ثوب إلى جسمها.

فتصبح به "لماذا تنزع ثوب عفافي أيها الحارس؟!" فيقول "أيتها الإلهة هكذا قضت شريعة آلهة الأرض العظيمة".

ولما مثلت إستار بين يدي الإلهة الجبارة، سخرت هذه منها ثم سلطت عليها الامراض العضالة، وبعد أن عذبها ردحًا من الزمن زجتها في غيابة السجن الأبدي.

"فعم الحزن الإلاهة، وشمل وجه الأرض.

"وابتعد الثور عن البقرة والحمار عن الاثان

"ورغبت الزوجة عن الزوج تقاومه وهي بين ذراعيه

"لأنه ذاع في كل مكان:

"إن إستار نزلت إلى جوف الأرض ولم تصعد منه".

وحينئذ أجمع الآلهة على إيفاد رسول الى ملكة الأرض العظيمة يأمرونها بواسطته أن تفك أسرها. فأطاعته على مضض (كما روت القصة) ولطمت جبينها، وعضت أناملها، ولم تقو على عصيان إرادة الآلهة فقالت "لنامتار" مستشارها:

"اذهب يا نامتار إلى ذلك السجن الأبدي، واخف الألواح التي يمكن بها الاهتداء إلى معرفة المستقبل، ثم بعد أن تستقي إستار من ماء الحياة أبعدها

عني"، وهكذا خرجت إستار مجتازة تلك الأبواب السبعة، وقد وجدت عند كل منها ما تركته من حلها وثيابها.

أما ابنها الذي أرادت أن تنتشله من مقام الأموات فأمره ظل غامضًا.

على أن هذه الاسطورة تنهي بعض الطلاسم السحرية والرقي والتعاويذ التي قد يكون الغرض منها انتشال هذا الولد السماوي المحبوب.

وهكذا ترى فيها ذلك الخيال الشرقي الساحر، والذوق المفطور على حب الصور الدقيقة اللطيفة. والحديث يسير بخطى نشيطة لا يشوبه التطويل الممل الذي يألفه شعراء الهند. ويمكن قياسه تقريبًا على الأقاصيص الفارسية والعربية الساحرة الممتعة.

ويمكن أن يقال أن هذه الأسطورة ليست الوحيدة من بين أساطير الأدب الآشوري، فإن هناك نتفًا تدل عنواناتها على أن هذا الأدب حوى غيرها لا يقل عنها سموًا ودقة.

ومن ذلك:

سيئات شياطين الشر السبعة. وخطيئة الآله زو. والخارج على بل. وغزوات لوبارا. والاه الطاعون. وكذلك قصة الفرس والثور، وقصة الثعلب والنسر والثعبان، وكلها كانت منتشرة بين الشعب.

ولقد كان ذلك الأدب البعيد يتخذ من أوصاف الثعلب رمزًا إلى الدهاء وسعة الحيلة، حتى أنه بعد أن حكم عليه بالموت لجريمة من الجرائم خرج منها سليمًا بسبب الأسلوب القوي الذي اتبعه في دفاعه.

ومع ذلك فإنها خواطر كثيرًا ما لاكتها ألسنة الأمم لأنه "لا جديد تحت الشمس".

أما الأمثال الآشورية فكانت تذهب دائمًا إلى أن الأنسان لقخ ضعيفًا، جاهلًا، شريرًا، يرتكب الخطايا وهو لا يشعر بها. والشائع وقتئذ على ضفاف الدجلة والفرات أن السعيد من يولد مكللًا:

"إذا وضعت امرأة طفلًا وكان على رأسه إكليل. فإن ذلك يبشر بأن السعادة ستحل معه في البيت".

وكثير من الشواهد تدل على أن الآشوريين كانوا يعرفون الأوزان، ويقولون الشعر. وفي أقاصيصهم الحماسية ما يعد لبلاغة أسلوبه وسمو موضوعه وذكر الآلهة فيه، من خير ما وصل إلينا من الشعر الحماسي.

وفي هذا النوع كانت أقاصيص "إستوبار" تعد من الطبقة الأولى. وما كان إستو بار غير "نمرود" الذي جاء ذكره في التوراة.

وما جاء في أسفارهم أيضًا عن حكاية الطوفان لا يخرج في كل تفاصيله عما ورد في الكتاب المقدس. (التوراة)

وأسوة بغيرهم من الأمم لم يهمل الآشوريون الشعر الغنائي، وكانوا ينظمونه في الغالب لتكريم الآلهة، ويوقعونه على بعض آلات الطرب، وقد وجد منه كثير في مكتبة نينوي. على أننا نذكر هنا على سبيل المثال قطعة منه كانت كثيرة الانتشار:

"اللهم الذي لا تخفى عليه خافية في الظلام، والذي يضيء لنا الطريق بنوره

"إنك الإله الحليم الذي يأخذ بيد الخطاة وينصر الضعفاء،

"حتى أن كل الآلهة تتجه أنظارهم إلى نورك،

"وشياطين الهاوية تلتهم أنظارهم وجهك،

"حتى كأنك فوق عرشك عروس لطيفة تملأ العيون بهجة،

وهكذا رفعتك عظمتك إلى أقصى حدود السماء،

"فأنت العلم الحق فوق هذه الأرض الواسعة.

"اللهم، أن الناس البعيدون ينظرون إليك ويغتبطون »

فالخواطر الشعرية التي سحرت قلب الإنسان، على شدة خشونته وقساوته، كانت لروح الآشوري الجامدة المتكبرة نصيب منها.

ولكن هذا الشعب الذي كان ذكاؤه الجامح يدفعه إلى التسلط، كان له جيران لا يقلون عنه عظمة، ولكنها عظمة قائمة على اللطف واللين.

إن هذا الشعب يمجد آلهته كما يمجد ملوكه، لأن الأولين بسلطتهم الإلاهية، والآخرين بقوة سيوفهم يضمنون له سيادة العالم مدي طويل.

وفي بعض المخطوطات ما ترجمه:

"أيها الأيام والسنون والحياة الطويلة، ويا أيها السيف القوي، ويا أحقاب "المجد، كوني من بعض منح سيدة الملك الذي وهب مثل ذلك لآلهته.

"فهل تنمو حدود أملاكه الواسعة ويزيد سلطان حكمه؟

"إنه بز الملوك بسلطانه وملكه، فهل يعيش حتى يبلغ أرذل العمر؟

"وإذا كان قد كتب له النعيم في أيامه الحاضرة، وفي أعياده فوق الجبل الفضي، وفي السماء، فهل تكون أيامه الطويلة مقدسة في حضرة الآلهة الذين يسكنون آشور؟"

الباب الرابع

العلوم والصنائع

١ - العلوم

طارت شهرة الكلدانيين العلمية في العالم القديم، ولقد وصلت إلينا بعد أن رن صداها في جوانب التاريخ، وهكذا كان الإغريق الراسخون في المدنية يقولون بأعلى صوتهم أنهم أخذوا مدنيتهم عن مدارس العلم القديمة التي ازهرت فوق مجرى الفرات الأدنى في العصور القديمة.

واستمر العلم الكلداني محترمًا مراعيًا إلى عهد نينوى وبابل، حتى أن ملوك آشور كانوا يرسلون كثيرًا من رعاياهم ليأخذوا العلم عن "أور" في إجاديا، ذلك المعهد العلمي الذي كان يتألق نوره فيمزق ظلام العصور الأولى، عصور ما قبل التاريخ؛ ولذا كان يقول ديودوروس، وهيرودوتس، وسترابون، وأرسطو، وآخرون : " إن نمو العقل البشري كان مترعرعًا وكاهلًا فوق ضفاف الفرات قبل أن يولد ويظهر على ضفاف النيل " ، وإذا وقع الإجماع على هذا الرأي، فلابد أنه قائم على أصول ثابتة؛ ولذلك لا يكتفي العلم الحديث في إثباته بما جاء في الأساطير والسير الخرافية، بل يعمد إلى البحث عن مصادر هذه الأصول، وإن كانت مباحثه لم تصل حتى اليوم إلى نتيجة يصح الوقوف عندها.

ومن نتائج العناية بدراسة بقايا تلك المدنية القديمة، وترجمة النصوص

الآشورية والمسمارية، علمنا أن مجرى الفرات الأدنى كان مأهولًا بشعب ذكي، نظامي، إلى المعرفة، ماهر في معاملاته صبور في أبحاثه ، علاوة على كونه أوّل من حاول الاهتداء إلى أسباب الظواهر الطبيعية التي كانت تجري أمام عينيه.

على أن مجهودات هذا الشعب العظيمة كانت مع ذلك لا تتعدى حد البحث والاجتهاد في سبيل الكشف عما يمكن إدراكه من نظام هذا الكون المعقد، الذي لم نتمكن حتى الآن نحن أيضًا من أن نمسك إلا أطراف الخطوط الهادية إليه.

وتتلخص علوم الكلدانيين والآشوريين في بضع معلومات فلكية ورياضية، وفي مجموعة مشوّشة من التنجيم والسحر، ومعلومات بسيطة عن أصول الأشياء، وسنوجز الكلام على ما عرفناه عن هذه المعلومات من خلال ما تركه كتاب العهد القديم، وما وجدنا من صحف الأجر التي كانت بدور الكتب الآشورية.

وسنرى من ذلك أن ما بلغته مجهودات رجال العلم الحديث عظيم جدًّا بالنسبة إلى ما وصل إليه أولئك الناس في تلك العصور القديمة ، على أنه لا يصح أن يغيب عن الأذهان أن فتح الطريق الجديدة أصعب كثيرًا من سلوك الطريق المفتوح المُعد، وأن ما وقت أيدينا إليه من روائع الاكتشافات ما كان ليتم لولا ما كان عليه ذلك الشعب الساذج من النشاط والعمل وحب التنقيب، حتى أنه عندما تجلت له السماء صافية ونجومها زاهية متألقة، أخذ يغوص في أعماقها الهادي إلى سر النظام العام الذي يسيّر هذا العالم.

نعم إن مهد علم الفلك كان في كلدة، كان في تلك السهول الفسيحة الأرجاء التي يجري الفرات فيها فلا يدرك النظر آخر مداه، وفي تلك السماء الشديدة الزرقة التي ما كانت تشوبها سحب أو تكدرها غيوم، بينما النجوم

تتلألأ فيها بشكل لا نجده نحن في سمواتنا القائمة.

وكان في بلاد بابل مراصد هرمية عالية، إلى جانب قصور الملوك، تعد أيضًا كهياكل، والفلكيون يرصدون فيها الفلك وحركاته وكل ما يجري فيه، ويقابلون تقاريرهم المختلفة بعضها ببعض، وكانوا يكتبونها بأمر الملك ويعرضونها عليه، ولقد عثر المكتشفون في نينوى على كثير من الألواح الدالة على ذلك، فمنها:

"يا آلهة تابوت ومردخاي، اكتبي لملكنا وسيدنا التوفيق، مدي في أيامه وارزقي جسمه العافية وقلبه الرضي" .

"في اليوم السابع والعشرين اختفى القمر، ولقد ظللنا بعد ذلك إلى اليوم الثلاثين نبحث عن سبب اكفهرار الشمس من غير كسوف، أما في اليوم الأول من الشهر التالي، شهر دوزو (يونيه)، فقد رأينا القمر يقطع السماء فوق نابو (عطارد) الذي أرسلت إلى سيدي الملك فيما سلف خلاصة بحثي عنه. أما في يوم أنو (Auu) حول نجمة بيرجيه (Berger أي الراعي) فقد أخذ ينحدر في سيره، ولم يكن قرناه ظاهرين في كل طريقه بسبب المطر، وفي يوم "أنو" أخطرت سيدي الملك ما شاهدته عند اقترانه، ولقد ظهر بعدئذٍ فوق نجمة شار (Cliar المركبة) في مسيره يوم بيل (Bel أعظم آلهة بابل) ، اختفي عند تلك النجمة ، " اسأل لسيدي الملك السعادة والسلام".

مثل هذه الأرصاد المجموعة بعناية يومًا بعد يوم على مدى عدة قرون كان من شأنها أن تؤدي إلى بيانات دقيقة عن حركة الكواكب، وسمحت للكلدانيين أن يتنبؤوا على وجه تقريبي بما سيقع من خسوف القمر في مواعيده وتواريخه، في أدوار جملتها ٢٢٣ شهرًا قمريًا أي نحو ثماني عشرة سنة، وكل دور من هذه الأدوار كان يطلق عليه اسم "ساروس" الكلدانيين، وقد عرفه الإغريق من

بعدهم، خصوصًا الفيلسوف ساليس المليتي، الذي حقق وضبط حسابه.

ويحسن ألا يذهب بنا الظن إلى أن علماء بابل كانوا على علم تام بدقائق الحساب المعقد الذي يمكننا اليوم من معرفة تواريخ عودة الخسوف والكسوف بكل دقة، أما ما كانوا يصلون إليه من النتائج فقد كان على وجه التقريب؛ نعم أنهم كانوا يعلمون أن كسوف الشمس ناشئ عن توسط القمر بين الأرض وبين هذا الكوكب، ولكن تنبؤهم به كان يخطئ أحيانا بخلاف تنبؤهم بخسوف القمر، لأن "الساروس" في الحقيقة لم يكن كافيًا لجعل تنبؤهم قائمًا على أساس الدقة.

وقيل إن فلكي بابل كانوا لا يجهلون وقت اعتدال النهار مع الليل، والإغريق الذين كانوا على علم به قالوا إنهم أخذوه عنهم، ولكن مبلغ ما وصل إليه علمهم، وما عثرنا عليه منه، يدل على أن حسابهم لم يكن من الدقة بحيث يصل بهم إلى هذه الغاية.

وربما وصلوا إليها على وجه التقريب، بطرق تجريبية لا تسير على قواعد صحيحة ثابتة كما كان الحال فيما يختص بالخسوف والكسوف.

ونحن مضطرون إلى التسليم بأن أرصادهم الفلكية هذه قد استمرت زمنًا طويلًا جدًّا، مما يحملنا على الرجوع بمدنيتهم إلى عهد سحيق لا يمكن قبوله ومما لا شك فيه هو أن الكلدانيين، والإغريق من بعدهم، يرتدون بأبحاثهم الفلكية إلى ٤٧٠٠٠٠ سنة قبل التاريخ، ونحن لا يمكننا إلى الآن التسليم بمثل هذا الرقم الخرافي ، والتاريخ الوحيد الذي نعرفه يقينًا هو تاريخ حكم سرجون القديم، الذي يرجع الى ٣٨٠٠ سنة قبل المسيح.



(ملك آشوري ووزيره)

ولقد جمع هذا الملك في مخطوط واحد- عثر المكتشفون على بعض بقاياه- كل البيانات الفلكية التي انتهت إلى عهده.

أما إذا أردنا أن نرجع إلى بيان صحيح دقيق، وجب علينا أن نعود إلى عهد نبوخذ نصر، أي إلى ٧٢١ سنة قبل الميلاد، فنرى أن هذا الملك أراد أن يبدأ كل شيء من تاريخ ملكه، فأعدم كل التقاويم والكشوف الفلكية التي كانت باقية إلى عهده، وقطع علينا الطريق لمواصلة البحث فيما وصل إليه علم

الكلدانيين في الفلك.

وفي عصره كان البابليون، ومن باب أولى الأشوريّون، يعلون كثيرًا عن الكواكب الظاهرة للعين المجردة، ويميزون تمام التمييز بين النجوم الثابتة، ويطلقون عليها هذه الأسماء:

" إيا، أي ساتورن أو زحل. وبيل، أي جوبيتير أو المشتري، ونرجال، أي المريخ، وأيستار، أي فينوس أو الزهرة، ونابو أي عطارد " ، وكانوا يعدون القمر والشمس من بعضها.

ثم إنهم كانوا يقسّمون هذه الكواكب إلى مجاميع مختلفة وضعوا لها مسميات ورموز، خصوصًا التي تتألف منها منطقة البروج.

وكانوا يعلمون أن السنة الشمسية **٣٦٥** يومًا وربع يوم، ولكنهم في أحوالهم المدنية كانوا يعمدون إلى السنة المركبة من اثني عشر شهرًا قمريًّا، حيث يكملونها في أوقات ثابتة بشهر إضافي.

وكانت تقاويمهم متنوعة، فمنها ما هو خاص بالعبادة والأعياد الدينية، ومنها ما كان خاصًّا بسير الفصول، وشروق الكواكب وغروبها، ونوع ثالث منها كان يرجع إليه لمعرفة التغيرات الجوية، وحالة الحاصلات، وما يعتريها من الجدب والخصب.

وهذه التكهنات أو التنبؤات التي نشأ بعضها من ملاحظات دقيقة لم تكن هي وحدها كل ما اهتم به كهنة الكلدانيين، لأنهم كانوا فوق ذلك يستعملون أساليبًا من التنجيم والطلاسم اشتهر بها علماء بابل.

وكان تأثير الكواكب في سير الفصول، ومدد الأيام، وبعض الظواهر الطبيعية متغلغلًا في نفوس أهل ذلك العصر، حتى أن كل حركة كانت تقع فوق

سطح الأرض كانوا يعلّلونها بأنّها حاصلة من تأثير الأجرام السماوية.

ولقد كان البحث عن الصلة بين الكواكب من حيث ظهورها وما يقع على الأرض من الحوادث وسيلة اتخذوها إلى التحدث عن مصير الناس والدول، حتى أصبح ذلك شملة الكلدانيين وأساسًا لعلم خفي كانوا ينشرونه على العالم حتى أخذه عنهم الإغريق، ثم الرومان، فالعرب، ثم انتشر في قارة أوروبا وبقي أثره إلى الآن.

ويمكن الاقتداء إلى موجز من علوم الفلك والتنجيم عن علماء بابل مما ذكره ديودورس الصقلي، لأن الاكتشافات التي تمت على أيدينا لم تهدنا إلى شيء كثير من ذلك، فخير لنا أن نرجع إلى روايته:

"إن الكلدانيين هم أقدم سكان بابل، وكان مقامهم في الدولة كمقام الكهنة في مصر لهداية الناس إلى عبادة الآلهة، فكانوا يقضون حياتهم بالتأمل في المسائل الفلسفية، ولهم شهرة لا تجاري في علم التنجيم حتى كانوا يخبرون بالغيب، ويحاولون منع الشر وجلب الخير بوسائل لا تتعدى التطهر أو القربان أو السحر، وكان من ضمن وسائل عرفانهم الغيب العيافة (أو زجر الطيور)، وكانوا يفسرون الأحلام ويعلّلون الخوارق، ولتضلعهم من معرفة أحشاء الضحايا كان الناس يعتقدون أن ما يقولون هو الحق.

ولقد كانت هذه العلوم ميراثًا يأخذه أبناء الكلدانيين عن آبائهم، ولهم في مقابل ذلك إعفاؤهم من أثقال الالتزامات العامة، ورفع الضرائب عن كواهلهم.

وكان الكلدانيون يقولون بأبدية العالم، وأنه لم يكن له أول يبدأ عنده حتى يكون له آخر ينتهي عنده، وموجب فلسفتهم كانوا يعتقدون بأن الحياة والنظام اللذين تظهر بها المادة إنما هما سرًّا من أسرار الآلهة، وأن ما تراه في السماء لم

يكن مصادفة وإنما هو أثر من آثار إرادتها.

ولقد أطالوا النظر إلى الكواكب من غابر الزمن، فاهتدوا إلى حركتها وتأثيرها في الناس، وبها توصلوا إلى علم الغيب (الطوالع) الذي أخذوا ينشرونه في العالم.

وكان أهم علم في نظرهم هو العلم الخاص بحركة الكواكب السيارة الخمسة، وكانوا يسمونها "بالترجمان"، وأهمها عندهم وأكبرها تأثيرًا ما كان يسميه الإغريق "كرونوس" (Kronos) أي زحل، ويطلق الكلدانيون عليه اسم كيلوس (Kelus)، أما الكواكب الأخرى فأسماءها هي على ما هي عليه الآن، أي المريخ (Mars) والزهرة (Mars) وعطارد (Mercure) والمشتري (Jupiter).

أما تسميتهم إياها "بالترجمان" فلأنّ الكواكب السيارة التي لها حركات خاصة ليست لسواها من الكواكب الثابتة، كانت تدلهم على الحوادث وتكشف للناس عن نيات الآلهة الحسنة.

وكانوا يقولون إن الباحثين المهرة تمكنوا أن يتنبؤوا بالغيب بمجرد النظر إلى الشروق والغروب، ولون الكواكب، فيخبرون بما سيقع من العواصف والأمطار، والحرارة الشديدة، وظهور الكواكب، والخسوف والكسوف، والزلازل، وكل ما يقع على الأرض من التغيرات، وفي ذلك كثير من إشارات السعود أو النحوس للأفراد، والبلدان، والأمم، ولا سيما الملوك.

وكانوا يقولون إن في الطبقة السفلى من تلك الكواكب الخمسة، ثلاثون كوكبًا اسمها الآلهة "المستشارة"، نصفها يتجه إلى سطح الأرض ونصفها الآخر يتجه إلى قاعها، وهي كلها راقبة على ما يجري بين الناس وفي السماء، حتى إن كل عشرة أيام يقوم من بينها كوكب مندوبًا عنها من المناطق العليا إلى السفلى،

بينما ينتقل كوكب آخر من جوف الأرض إلى ما فوقه، وذلك في أوقات معينة.

ومن بين هذه الكواكب المستشارة اثنا عشر كوكبًا يتحكم كل منها في شهر من شهور السنة، ويكون واحدة من اثني عشر رمزًا لمنطقة البروج.

وكل من الشمس والقمر والكواكب الخمسة المتقدم ذكرها تمر بهذه الرموز فتتم الشمس دورتها في مدى سنة، وأما القمر في مدى شهر.

ولكل كوكب مدار خاص، وتختلف الكواكب بعضها عن بعض باختلاف سرعتها والزمن الذي يقطعه مدارها، وتؤثر في ميلاد الناس وحظوظهم، ولذلك يتخذها الباحثون كتابًا يقرأون في سطوره الغيب، فذكروا نبوءات كثيرة لعدد لا يحصى من الملوك، كداريوس الظافر، وإسكندر، وأنتيجون، وسلوقيوس تيكاتور، ويظهر أن هذه النبوءات صدقت ولم تخطئ، وسنتكلم عليها في مكانها.

ولم يحرم الخاصة من الوقوف على مخبئات مستقبلهم، وكانوا يدهشون ويعجبون بدقة أولئك المنجمين.

أما فيما عدا منطقة البروج فقد ذكروا أربعة وعشرين نجمة، نصفها في الشمال ونصفها في الجنوب، سموها قضاة الكون ، اختص الظاهر منها بالأحياء، والخفي بالأموات.

أما القمر فقد كان الكلدانيون يقولون إنه يدور تحت كل الكواكب قريبًا من الأرض بسبب النقالة (Pesanteur) ويتم دورته في وقت قصير؛ ليس لسرعة حركته ولكن لأن مداره قصير، ونور القمر مكتسب، وخوفه مسبب عن وقوع ظل الأرض عليه، كما ذكر الإغريق .

أما عن كسوف الشمس فقد كانت معلوماتهم مهمة، حتى أنه لم يكن في وسعهم أن يتنبأوا عن زمن وقوعه .

وللكلدانيين عن الكرة الأرضية آراء غريبة، فقد كانوا يذهبون إلى أنها مجوفة، وأتوا ببراهين عديدة على صحة نظريّتهم في نظرياتهم المختصة بنظام الكون وأحكامه".

وكان الشهر القمري عندهم ينقسم إلى ثمانية وعشرين يومًا، أي إلى أربعة أسابيع، كل أسبوع منها سبعة أيام.

وهم أول من سمى هذه الأيام السبعة بأسماء الكواكب السبعة. وقد حفظنا عنهم ذلك، أما اليوم السابع فقد كانوا يعتبرونه يوم راحة، كيوم السبت عند اليهود، وكان لديهم آلات يقيسون بها الزمن، منها المزاول الشمسية، والساعات المائية، وآلات معدة لأخذ ارتفاع الشمس.

وروى هيرودوتس أن الإغريق أخذوا عن الكلدانيين تقسيم النهار إلى اثني عشر جزءًا، ولا ريب في أن هذه الأجزاء هي ساعات النهار الاثنتا عشر، من الصباح إلى المساء، لأن الكلدانيين كانوا يقدرون اليوم، أي الليل والنهار، بأربع وعشرين ساعة.

ونحن نعلم أن سكان الجزيرة اخترعوا أصطرلابا (astrolabe) لقياس ارتفاع الكواكب، ولا بعد أنهم عرفوا بعض خواص العدسات، فقد عثر المنقبون في خرائب نينوى على عدة منها، ويظن أن بعض الكواكب التوابع للمشتري وزحل كانت لا ترى في مراصد بابل إلا بعدسة، ولكن يجب البحث عن أداة أقوى من تلك للحكم على مسألة من الأهمية بمكان كهذا، لأنه يصعب تصديق وجود مثل هذه الوسائل عند الكلدانيين مع عدم وجودها عند المصريين والإغريق الذين كانوا على أوثق الصلات بهم.

أما المسائل الرياضية والآثار الدالة عليها، مع قلّتها، تكفي للدلالة على

أن الكلدانيين كانوا بها أيضًا أغزر علمًا منهم بالمسائل الفلكية.

وقد وجد في "سنقره" (Senkereh) لوح قديم، هو الآن بالمتحف البريطاني، يعد أكبر بينة على صحة ما ذكرناه، ويدلنا على أن علم الإعداد عند الكلدانيين كان لا يقل عن مثله اليوم، وأن تلك الأمة كانت أولى الأمم التي اعتمدت وحدة "مترية" كالوحدة التي نستعملها نحن (الفرنسيون).

وتلك اللوحة التي عثر عليها المنقبون في سنقرة مخطوط على أحد وجهيها مكعبات الأعداد من رقم "واحد" إلى رقم "ستين" وعلى الوجه الثاني سلسلة كاملة لمقاييس الأطوال.

وكان الكلدانيون يرجعون في حسابهم إلى ثلاث طرق :

وهذه الطرق هي الطريقة العشرية، ومنشأها اعتيادهم العد على أصابع اليدين العشرة، والطريقة الاثنا عشرية، وكانوا يستسهلونها لكثرة عواملها المعادلة للرقم ١٢، ثم الطريقة الستينية وأساسها رقم ٦٠، فيمكن قسمتها إلى عشرات وإلى إثني عشرات تجمع بين الطريقتين السالفتين.

وكثير من الأمم أخذت هذه الأساليب عن مخترعيها الكلدانيين واستعملها، ونحن أيضًا نستعمل الطريقة العشرية، والطريقة الاثني عشرية، فيما نطلق عليه اسم "الدزينة" أو "الدستة" (douzanine) وهي كثيرة الانتشار، وكذلك الطريقة الستينية فيما يتعلق بحساب الزمن أو تقسيم المحيط عند الملاحين أو الفلكيين، على أن هذه الطريقة الأخيرة لم يستعملها قديمًا إلا علماء الكلدانيين، فقد كان محيط الدائرة مقسّمًا عندهم إلى ٣٦٠ درجة، والدرجة إلى ٦٠ دقيقة، وهذه إلى ٦٠ ثانية، والثانية إلى ٦٠ ثالثة، ورموز هذه التقاسيم هي التي نستعملها إلى الآن.

وكان اليوم عند الكلدانيين ينقسم إلى ٢٤ ساعة، والساعة إلى ٦٠ دقيقة، والدقيقة إلى ٦٠ ثانية، وهم يطبقون هذه التقاسيم على المدد، فكانوا يفرضون فترة من الزمن طولها ٤٣٢٠٠ سنة يظهر لهم أنها يوم في حياة العالم[١١]، وهذه الفترة تنقسم إلى ٦٠ سار (Sare)، أو ساعة من ساعاته، وكل سار منها ٣٦٠٠ سنة، وكان السار ينقسم إلى ٦٠ صوصًا (Sosses)؛ أي دقيقة كونية، كل منها ٦٠ سنة، وأخيرًا إلى السنة التي يعتبرونها بمثابة ثانية من ثواني الحياة العالمية.

أما طريقهم في الوزن والقياس فكانت كالتي عندنا؛ تقوم على وحدة طولية كان يطلق عليها اسم "أنبان" (Empan)، وتعادل ٢٧ ملليمترًا، وكان مربع الأنبان ومضاعفاته وما تحت ذلك لقياس المساحة السطحية.

وعثروا في بابل عل مكاييل وموازين، فالأولى عبارة عن أوان من الأجر، والثانية من البرونز، ذات أشكال مختلفة، منها ما هو على شكل أسد أو حلوف أو بط، مذكورًا فوقها مقدارها مع اسم الملاك واسم من اعتمد صحتها.

وأطلقوا على وحدة الأوزان اسم "مين" (Mine) وكانت تعادل تقريبًا ما وزنه ٤٠٠ جرام (رطل نقريا) ، ومضاعفه وزنة (Talent) يساوي ٦٠ مينًا، وهذه تقسم إلى ٦٠ درهمًا.

ومن هنا نرى أن علوم الرياضة والفلك هي التي ترعرعت في بابل، وفيما بعد انتشرت في آشور، ومن دار كتب آشور بانيبال علمنا أن البابليين والآشوريين حاولوا تصنيف الحيوانات والنباتات التي عرفوها، وكانت الحيوانات منقسمة إلى فصائل، منها اللواحم (آكلة اللحوم) وتناول كثيرًا من الأنواع

---

(١١) يظهر أن ما يقرب من ذلك كان معروفًا عند المدنيين والهنود أيضًا.

كالأسد والذئب والكلب الذي ينقسم إلى أنواع مختلفة، ومنها العواشب (آكلة العشب أو النبات) كالثور والخروف والمعز، ومنها الحشرات، وهي مرتبة على حسب طريقة غذائها، فمنها ما يعيش على الخشب والصوف، ومنها ما يعيش عالة على الإنسان والحيوان.

أما النباتات والمعادن فقد راعوا في تصنيفها أساسًا يرجع إلى تشابهها وطرق استعمالها، وقد عثر الباحثون على بعض أدراج حوت جغرافية بعض البلاد الشهيرة وأسماءها وحاصلاتها.

وقصارى القول، نرى أن نصيب بابل من المعرفة، مهما يكن من شأنه، لم يبلغ العلم بالمعنى الصحيح، وإنما كان عبارة عن عدة ملاحظات ومحاولات دقيقة في هذا السبيل، فقد عرفوا أشياء كثيرة، ولكن لم يكن لهم علم بالقوانين العامة التي تدخل تحت سلطانها، ومع ذلك لا يحق لنا أن ننتقد الأسلوب الذي اتبعوه، فإن كثيرًا من أفذاذ مفكرينا يرجعون اليوم إليه من رصد الحوادث والصبر على بحثها حتى يصلوا إلى حقيقة القوانين.

ومعلوم أنه قبل فهم الطبيعة وتفسير سننها يجب إطالة النظر إليها والتأمل فيها، فبعد ملاحظة ما لا يحصى من المشاهد أمكن معرفة قاموس الجاذبية الذي بموجبه يسقط ثمر الشجر، وثم الكواكب ودورانها بانتظام.

وولع الكلدانيين باكتشاف حقائق الأشياء انتقل إلى الآشوريين، ثم إلى الإغريق، فكلدة وحدها هي التي شعرت في ظلمة هذا الكون بالظمأ الشديد إلى العلم، وإليها وحدها يرجع الفضل فيما كسبته الإنسانية من التقدم والارتقاء، والخروج من طور البهيمية والوحشية.

وهذا الطلسم الذي يحول بيننا وبين الوقوف في طريق التقدم، ألا وهو

"العرفان" كان وجهة عقلائها وحكمائها، كما هو قبلة أنظار المفكرين فيما الذي يدفعهم إلى مواصلة البحث في رمال الصحراء عن الأطلال التي تهدينا إلى ما كان عليه أهل تلك القرون البائدة.

٢- الصناعة :

يضطرنا البحث في صناعات الكلدانيين والآشوريين إلى الرجوع إلى العصر الحجري؛ لأن كثير من الأدوات القديمة المصنوعة من الظر(Silex حجر الصوان)، وجرت في أطلال بلادهم.

ويمكننا أيضًا أن نهتدي إلى أصل العصر البرنزي، لأن بعض الخلافات والمخطوطات هدتنا الى آثار هذا العصر الذي كان الحديد فيه نادرًا جدًا، حتى كان لا يصنع منه سوى الحلي،

ولكن هذا المعدن وجد في كل أدوار العصور التاريخية وكثر استعماله، وكان من بين الدفائن التي عثر عليها بعض أدوات من الفولاذ، فهذه الصناعة إذن قديمة، وكانت ذات شأن في البلدان المجاورة لأرض الجزيرة، حتى لقد ذهب الظن إلى أنّ فولاذ دمشق الشهير، الذي كان الإقبال عليه شديدًا في القرون الوسطى، لم يكن سوى ما أخرجته مصانع بابل ثم استقر في سورية بطريق التوارث، ولا نعرف أمة أدخلت الحديد والفولاذ في صناعاتها قبل الكلدانيين والآشوريين.

والرأي التاريخي الذي يعلّ استمرار حكم نينوى لبلاد العالم القديم بسبب وفرة هذه المعادن لديها قد لا يخلو من الصحة.

وكان الآشوريون مولعين بالأسلحة، فسيوفهم وحرابهم وتروسهم ودروعهم (Bouclier) وخوذاتهم كلها كانت آية في المتانة والإتقان، على أنه يكفي التأمل

في الخناجر ذات المقابض التي على شكل سبعين التي نراها بين أيدي تماثيل ملوكهم حتى تقتنع أنها من أبدع الآثار الفنية.

وكان عندهم عدا ذلك أدوات كثيرة كالمحاريث، والمعاول، والخطاطيف، والسلاسل، والمقابض، والمفاصل وغيرها.

وهذا المعدن كانوا يستعملونه أيضًا في الأبنية التي كانت في حاجة إلى تقوية، حتى ذكر ديودورس الصقلي أن قنطرة على الفرات في بابل كانت أعمدتها الحجرية مربوطة بمشابك (Fibulas) من الحديد، وأن الفراغ الذي بين أجزائها كان مملوءًا بمذوّب الرصاص لتوثيق الحجارة بعضها مع البعض، وهكذا كانت كل أنواع الصناعات الحديدية زاهرة على ضفاف نهري دجلة والفرات.

وكان الذهب والفضة مستعملين أيضًا، ولكن بغير مزج، وكانوا يطرقونهما صفائح رقيقة يزينون بها الجدران ويصنعون منهما التماثيل، قال هيرودوتس: "أنه كان في هيكل "بيل" تمثال كبير من الذهب يمثل جالسًا، وبقرب هذا التمثال مائدة كبيرة من الذهب أيضًا، وكان العرش وسلّمه من هذا المعدن نفسه، ووزن كل ذلك، على ما جاء في تقارير الكلدانيين، نحو ثمان مائة"، على أن ديودورس الصقلي، الذي ذكر خبر هذا الهيكل عن طريق السماء، لأنه لم ير إلا أنقاضه، وصف بعض تماثيل من الذهب، وأفاعي من الفضة، وقال عن تمثال المشتري والمائدة التي أمامه أنهما كانا مصفحين بالذهب.

وفي بعض المخطوطات أن الملوك كانوا يباهون بعظمة قصورهم التي كانت جدرانها مغطاة بالفضة، إذن كان صهر هذين المعدنين وتطريقهما (مطلهما) من الأمور المعروفة في ذلك العصر.

ومما يستحق النظر هو صناعة البرونز، وهو مزيج من النحاس والقصدير،

فمنه صنعوا النواقيس الرنانة، والأبواب السميكة، والسياجات وأسوار القصور والمدن، "وكان الدخول إلى الحصن الذي شيدته "سميراميس" من باب ذي ثلاث طبقات، خلفها غرف من النحاس الأحمر لا تفتح إلا بواسطة آلة ميكانيكية" كما رواه ديودورس الصقلي.

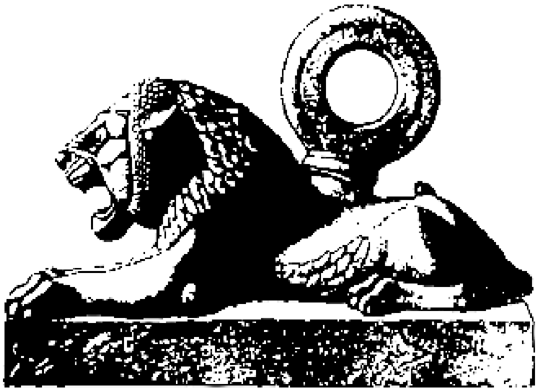
وكان البرونز يصهر ويصب في بابل وآشور، ويدل على ذلك ما عثروا عليه في أطلالها من التماثيل الصغيرة، والزخارف، والأواني، والقدور، والجامات (Coupes) والصحون، وكذلك القوالب التي كانوا يصبونها فيها.

وبلغ من براعهم أنهم كانوا ينقشون التمور الدقيقة في الحجارة الشديدة الصلابة، كالحجر اليماني، والعقيق الأبيض، والجزع البقراني (Sardcine) وغيرها، وكان نقش تلك الصور الدقيقة يحمل على الظن بأنّ النقوش البارزة كان يستعان على صنعها بعد مات، وربما كانت العدسة الزجاجية التي عثر عليها في نينوى مما يقوي الظن بأن أولئك القوم كانوا يعلمون ما لتقعير العدسة من قوة التكبير.

وربما كان الحفر على الحجر الصلد أقرب عندهم إلى الصناعة منه إلى الفن، لأن الصناع كانوا في حاجة إلى السرعة إنجازًا لما يطلب منهم.

قال هيرودوتس، وأيده في ذلك بعض ما عثر عليه من المكتوبات، أن كل آشوري وكل بابلي كان له ختم يستعمله كالإمضاء، يوقع به على الأجر اللين في آخر ما يكتب عليه من الرسائل أو العقود.

أما الفقير الذي لا يملك ختمًا فقد كان يبصم عدة مرات بظفره، ولكن ذلك كان نادرة، لأن الأختام كانت متفاوتة الأثمان، فلا يقتصر نقشها على الحجارة الكريمة بل كانت تتناول أيضًا الصدف والحصى.





على أن هذه الأختام كانت عرضة للتجديد المستمر، لأن أصحابها اعتادوا أن يضعوا كمية منها بين طبقات بناء قصورهم وغيرها من معابد وقلاع، ولا بد أن ذلك كان يحصل في إبان الاحتفالات التي كانت تقام عند وضع أساسات تلك المباني، فيندفع الناس إلى إلقاء أختامهم فيه، مضحّون بتلك الآثار الثمينة التي جمعنا الكثير منها في متاحفنا العديدة، وأغلبها على شكل أسطواني يدور حول محور (كالمحدلة)، بحيث يمكن طبع ما عليها من الصور بسرعة بمجرد إمراره على سطح مستوٍ.

وكانت قوالب الآجر تقوم مقام ورق البردي، أو (المهرق والرق)، أو مقام الحجر الذي لم يكن موجود عندهم، ولذلك كانت صناعة الأجر من أهم الصناعات في ذلك الزمان، وكانت عجينة الآجر اللينة تجفف في الشمس أو تحرق في النار، وكانت الأولى تستعمل في الجدران الداخلية وتقوى بطبقة من الغاب (الحجنة)، وبالأسمنت (المونة)، وكانت على أنواع أهمها اثنان كان استعمالهما شائعًا، ويدخل في تركيبهما الصلصال مخلوطًا بالزفت الكثير الوجود على شواطئ الفرات.

وعندما تعرض ديودورس لوصف قصر سميراميس، قال:

"قد كان مقوى بحيطان بديعة مرتفعة مبنية من الأجر المحروق، وكان بداخل كل حائط حائط آخر من الأجر اللين (اللبن) عليه كثير من النقوش تمثل عدة أنواع من الحيوانات".

ووصف هيرودوتس كيفية بناء حيطان بابل، فقال:

"كان الآجر يصنع من تراب الأرض التي يحفرون فيها خنادق الأساسات، ولما تكمل الكمية اللازمة كانوا يحرقونها في أفران، وبدل الملاط (المونة) كانوا يستعملون القير (أو الزفت المعدني Bitumen) بعد تسييحه، وبين كل ثلاثين عرقة (مدماك) من الآجر توجد طبقة من الحصير المصنوع من الغاب (الحجنة) المشبع بالزفت، وعلى مسيرة ثمانية أيام من بابل توجد مدينة "إيس" (Is) ، على جدول بهذا الاسم يصب في الفرات، ومع مياه هذا النهر تنصب كمية كبيرة من هذا القير الذي صنعوا منه أسوار بابل".

وكان هذا الأجر ذا ألوان مختلفة، فمنه الأصفر، والبرتقالي، والأحمر، والأسمر، والأزرق السنجابي، وهذا التنوع في اللون سببه طبيعة الأرض وتأثير الطبخ، وعلى كل حال فقد كانت تلك وسيلة استخدمها المهندسون ليقلدوا بها حيطان إكباتان[١٢].

وهذا ما ذكره هيرودوتس عن هذه المدينة التي نسب تشييدها إلى ديجوسيس (Dejoces) أو دياكو (Dayakkou)، ملك الماديين وإن كان ديودورس يقول إن سميراميس هي التي يرجع الفضل إليها في إقامتها:

---

(١٢) Ebatane أو أحمنا الوارد ذكرها في التوراة في سفر عزرا في الإصحاح السادس والعدد الثاني، كانت عاصمة بلاد مادي. أما الآن فان اسمها حمدان في بلاد فارس.

"وأسوار هذه المدينة مستديرة يجمعها مركز واحد. ولكل سور منها عند نهايته شعب بارزة على شكل الأسنان، فكان كل سور يزيد ارتفاعًا على المجاور له بحيث تظهر شعبه هو أيضًا ولا تزيد على سبع، وكانت شعبها تختلف بعضها عن بعض في اللون، فترى شعب الدور الأول بيضاء، والتي تليها سوداء، فحمراء، فزرقاء، فبرتقالية ضاربة إلى الحمرة، أما شعب السورين الباقيين فبعضها عليه طلاء من الفضة وبعضها من الذهب".

وهذه الطبقة الفضية أو الذهبية هي من الصفاح، وكان اللون الأبيض من الجير (الكلس)، والأسود من الزفت، أما الألوان الأخرى فربما كان سببها تنوع لون الآجر على ما سبق ذكره.

وكثيرًا ما كانت تقام في كلدة أبراج هرمية ذات سبع طبقات مختلفة الألوان، وربما كان الدافع لهم إلى توخي هذا العدد وتلك الألوان تأثرهم بالكواكب السبعة وما نسبوه إليها من الألوان،

أما مآخذ الألوان فقد كانت معروفة فيما بين النهرين، فالأحمر أكسيد النحاس، والأصفر أكسيد الحديد، والأبيض أكسيد الزنك، والأزرق الكوبالت، وبهذه الألوان كانوا يلونون عجينة الزجاج التي كانوا يطلون بها القار ليكسب لون المينا أو "القيشاني".

ولم تكن صناعة الفخار في بابل أو آشور رائعة من الوجهة الفنية، ولكنها مع ذلك كانت تتناول أشياء كبيرة المساحة. وأكبر ما وجد منه مطبوخًا أغطية بوابات (نواويس) الموتى وأغطيتها، وهي من قطعة واحدة بطول الإنسان، يوضع الميت فيها مع بعض أشياء كانوا يدفنونها معه، وكانت هذه التوابيت أحيانًا مؤلفة من جزئين كبيرين، كل منهما بشكل قدر توضع أطراف الميت السفلي في إحداهما، وباقي جسمه في الأخرى، ثم تتصل أحداهما بالأخرى اتصالًا محكمًا.

وكثير من هذه التوابيت وجدت في بابل التي كانت، على ما يظهر، الأرض المقدسة حيث يدفن الآشوريون موتاهم.

أما الخشب والجلود فقد كان استعمالها دائمًا في كثير من الصنائع، ومنها صناعة السفن، لأن البابليين كانوا ملاحين في الأنهر والبحار كما يدل عليه قول النبي أشعياء:

"هذا ما يقوله الرب فاديكم قدوس إسرائيل، لأجلكم أرسلت الأعداء إلى بابل وأسقطت كل عمدها، وهزمت الكلدانيين الذين وضعوا كل ثقتهم في سفنهم".

ولا شك أن هذه السفن التي كانوا يأمنون إليها أمتن صناعة وأشد صلابة من القوارب التي تجري في الأنهر، وقد وصفها لنا هيرودوتس، وسنأتي الآن على هذا الوصف لغرابته، ولأنه ينطبق أيضًا على السفن التي تنحدر في أيامنا إلى الدجلة والفرات، قال:

"وسأحدثكم عن شيء آخر لا يقل إبداعًا عنها في هذه المدينة، فأن السفن التي تستخدم للذهاب إلى بابل مصنوعة من الجلد على شكل مستدير، ومكان صنعها في أرمينية، في شمال آشور، ويستعان على ذلك بخشب الصفصاف لتشكيل هيكلها ثم يكسونه بعد ذلك بالجلد حتى يصبح كالدرع لا يميز بين مقدمه ومؤخره، ثم يملؤون قاع هذه السفن بالحطب أو الغاب (البوص).

وهذه السفن (أو بالحري الأطواف) التي كانوا ينقلون عليها مختلف السلع، ولا سيما خمر (عرق) البلح، كانت توضع في اتجاه تيار النهر، وفي كل منها رجلان واقفان يردها (يدفعها) كل منهما بمردي (عصا طويلة تدفع بها

السفينة في الأنهر واسمها المعروف في مصر مدرى)، ومن تلك السفن ما هو صغير يحمل فوق شحنته حمارًا واحدًا، ومنها ما هو كبير يحمل عدة حمير.

وكانوا متى بلغوا بابل وفرغوا من بيع ما معهم يبيعون هيكل المركب وما فيه من الحطب، ثم يحملون جلده على الخير، ويسوقونهم أمامهم حتى يعودون إلى أرمنية، لأن سرعة جريان النهر لانحدار مائي تحول دون العودة فيه لمقاومة التيار، ولذلك كانوا يصنعون سفنهم من الجلد لا من الخشب، وعند عودتهم إلى أرمينيا كانوا يصنعون غيرها على الوجه الذي سبق".

ولعل أهم صناعات بابل التي لم يجارها فيها مجار في العهد القديم في صناعة الأنسجة من الشفوف الخفيفة، إلى الأنسجة المزركشة، إلى السميكة الخيوط، إلى البط الفاخرة، فكان ما يصدر منها إلى البلدان البعيدة يباع بأغلى الأثمان.

وقد ظلت محافظة على هذا المقام إلى أن قامت اليوم سجاجيد (طنافس) أزمير والعجم مقام بسط بابل الشهيرة.

وقد برزت بابل مناظرتها آشور سواء أكان من الوجهة الصناعية أو العلمية، وإذا كان بريق الأسلحة في نينوى مما يبهر الأبصار ويحير العقول، فإن ضياء العالم وبهجة الرخاء كانا دعامة مجد بابل التي روج صناعها الماهرون، وتجارها الشاطئ مصنوعاتهم وبضائعهم في أنحاء العالم المعروف، فعادت عليها بالثروة الوافرة، قال هيرودوتس:

"ومن الأدلة على عظمة غني بابل، أنها كانت تنفق على إطعام جيش الملك أربعة أشهر في السنة، وفي الثمانية الأشهر الباقية تنفق عليه البلدان الأخرى، فكأن ثروة بابل ثلث ثروة البلاد كلها"، وقد ذكر النبي أرميا أن الله سوف يرسل إلى بابل، أعظم مدن العالم في العمران، جموعًا من الأمم ليثروا من بقاياها.

على أن اسم بابل لايزال إلى اليوم مرادفًا لألفاظ الزينة، والأنس، والسرور، والشهوات، فلن توجد مدينة لها مثل هذه الشهرة الرائعة الفنانة، حتى صح فيها ذلك الوصف الذي وصفها به النبي أرميا بقوله:

"بابل كأس ذهب بيد الرب، تشكر كل الأرض. من خمرها شربت جميع الشعوب".

الباب الخامس

النظم السياسية والاجتماعية، والأخلاق والعادات

١ - النظم السياسية والاجتماعية :

وكانت الحياة السياسية والاجتماعية عند الآشوريين والبابليين متشابهة، نعم إنه كان بينهما في أول الأمر اختلاف يتناول أهم الاختلاف، والنظم، والمنشأ، والطباع، ولكن كل ذلك زال أخيرًا فاندمجا اندماجًا تامًا، ورغم تغلب العنصر السامي بما كان له من القوة، فقد ظل تأثير الذكاء الكلداني القديم سائدًا من بعدهم في أبنائهم وذراريهم.

وهكذا كانت مظاهر القوة منتشرة في أشور، أما في بابل فإن حضارتها حالت دون انهيارها، حتى في مدى القرون التي ظلت آشور متحكمة فيها.

على أن موقع كل منهما الجغرافي كان سببا لتوجيه نشاط كل منهما إلى وجهة خاصة مختلفة، فقد كان البابليون أعظم أم عصرهم في الملاحة، لأنك من دجلة والفرات كان يصب في الخليج الفارسي، فانفتح أمامهم الطريق إلى شواطئ البلاد البعيدة كالهند الغنية بكنوزها، والحبشة بذهبها وطيوبها وعطورها.

أما الأشوريون فلم يعنوا بالملاحة نظرًا لإقامتهم في الجزء الأعلى من أرض الجزيرة، على أن فتوحاتهم وانتصاراتهم مكنتهم من القبض على زمام الملاحة في

صور وبابل، وبتسلطهم على سواحل كلدة وفينيقية أصبح البحر أيضًا خاضًا لسلطانهم وكان بينهما اختلاف آخر، نذكره قبل أن نخوض في النظم العديدة التي كانت عامة بينهما، وهذا التباين كان في شكل الحكم عند كل منهما. ففي بابل كان أقرب إلى رجال الدين منه إلى غيرهم، بخلاف نينوى التي كان صولجان الحكم فيها بيد الملك وحده.

وكانت حكومة آشور ملكية حربية وبقاؤها استدعي هذا النوع من الحكم، لأنها كانت مملكة شاسعة الأطراف، بعيدة الحدود، مؤلفة من كثير من العناصر المختلفة، فلم يمكن تماسكها إلا إذا قبضت على أزمة الحكم فيها يد من حديد، ولم يكف ملك نينوى أن يكون قاسيًا مستبدًا، بل كان عليه أيضًا أن يكون فاتحًا مغوارًا، لا ينفك عن الغزو وشن الغارات، والبلاد التي تمكن من إخضاعها لصولجانه كبابل وأرمينية وفينيقية وفلسطين، كانت بلادة وثابة تأنف من ذل الخضوع لسواها، فكان وقوفه عن هذه الحركة لحظة واحدة يفضي إلى انسلاخ بعضها، بل وإلى انتقاضها جميعًا فتصبح آشور من جراء ذلك أثرًا بعد عين.

ويكفي أن تحرز هذه الأمم المغلوبة انتصارًا واحدًا لتزحف على تلك المدينة الجبارة العاتية، نينوى، وتغادرها خراب يباب.

لذلك كانت سلامة نينوى وحياتها في مواصلة تلك الغزوات التي لم تنقطع حتى آخر أيام حياتها، ولما سقطت لم تقم لها قائمة بعد سقوطها.

على أن الأسباب التي جعلتها مدى القرون الطويلة سيدة العالم، هي ذات الأسباب التي قضت عليها بالدمار والفناء، ولذلك ترانا حين نقرأ وصف ديودورس لاستكانة ملوكها إلى حياة الخمول والبطالة وانغماس "ساردانابال" في اللهو والدعارة، لا نظن إلا أننا نطالع خرافة، قال هو نفسه أنه نقلها عن

ستيزياس (Cesias)، أما اليوم في متناول أيدينا من الشواهد ما هو أصح بما لا يقاس من رواية هذا المؤرخ الإغريقي لأنه منقول عن النقوش الأثرية التي تظهر لنا ملوك أشور الحربيين شجعانًا لا يتطرق إلى نفوسهم وهن أو ملل، غلاظًا قساة القلوب لا يهدئون عن الحروب الهائلة ،إلا إذا أرادوا أن يتسلوا بصيد أضرى أسود الصحراء وجهًا لوجه.

وإذا أمكننا أن نصدق ملق المملقين من جلسائهم، حسبما يظهر من النقوش التي على آثارهم، ترى أن ما يذكر عن انصرافهم إلى الغزوات والحروب المستمرة يجعل رواية ديودورس عن الملك سردانابال في حكم الاستثناء، هذا إذا سلمنا بحقيقة وجوده، وقصة هذا الملك التي لم يؤيدها أي مصدر جدير بالثقة، ذائعة مشهورة بحيث يكون من التقصير إغفالها، ولذا فإنا نرويها هنا كما هي: –

"سردانابال الملك الثلاثون من عهد "نينوس" وآخر ملوك الأشوريين بزمن سبقه من الملوك في الدعارة والانغماس في الملذات، فلم يتورع عن التجرد من ثيابه أمام أعين شعبه، بل كان يعيش عيشة النساء، صارا وقته بين محظياته، مرتديًا ملابس النساء، ملطخ وجهه بالأصباغ الحمراء، وبدنه بالدهون والمساحيق التي كانت خليلاته تستعملها، وكان في حركاته غنج وتكسر ودلال، وفي صوته نبرات صوت المرأة. وقد أطلق نفسه عنان الشهوات الجنسية بلا خجل ولا استحياء، وانغمس في حمأة الفسق والفجور انغماسًا شديدًا، حتى أنه كتب بنفسه ما أوصى بأن ينقش بعد موته على قبره بلغة غريبة ، ترجمها مؤخرًا إغريقي وهذا نصها:

أيها المار بقبري، تذكر أنك لست من الخالدين، وافتح صدرك للهو والسرور لئلا تمتع بعد الموت، فأنا الآن لست إلا ترابًا، بعدما كنت ملكًا عظيمًا على نينوى العظمى، ولكنني قد هنأت بما أكلته من طعام، وشربته من

خمر، واستمتعت به من ملذات الحب والغرام؛ ولم أفقد سوى سلطاني وكنوزي".

وليس في كل ما عثر عليه المنقبون إلى الآن من الكتابات في خرائب آشور ما يؤيد هذه الوصية، لأن الحجارة التي كانت تقام لتخليد ذكر ما أحرزه الملوك من الانتصارات، وما وجد على جدران قصورهم من الكتابات كان يشيد بأعمالهم الحربية، ولا يذكر شيئًا عن لهوهم وملذاتهم.

ويظهر أن الآشوريين كانوا أسبق من غيرهم في التحرر من ذكر النساء علانية، كما نشاهد ذلك إلى الآن في أغلب بلدان الشرق، وهو عدم التحدث عن الزوجة إلا تلميحًا، أو ذكر اسمها الحقيقي، وسنرى أن البابليين كانوا على عكس هذا الرأي، فالسيد الأشوري كان له من شوكته الحربية، بل ومن قسوته وشدة بأسه ما يحمل غيره على احترامه وطاعة أوامره.

ولقد قابلنا فيما سبق بين وحشية نينوى ومدينة بابل، وتقدير أهلها للفنون الجميلة، ثم توجد مسألة يجب ألا يفوتنا ذكرها، وهي أن ما من شعب أمعن مثالوه وكتابه في التغني بوصف أفظع المذابح والعذابات كالشعب الآشوري، فقد كانوا يرصدون على لوحات الأجر عدد الرؤوس المقطوعة أو الأبدان المبتورة أطرافها، أو صفوف الأسرى المربوطون ببعضهم بواسطة حلقات معدنية مثبتة في شفاه أو أنوفهم، وهم وقوف في انتظار حكم الملاك المواقف أمامهم واضعًا قدمه على جبين أقرب أولئك التعساء إليه، منهمكًا في ابتكار نوع جديد من العذاب يصبه عليه، أو يتناول قضيبًا فيفقأ به عيني أسراه، بينما ترى على مقربة منه صفًا طويلًا من خوازيق مثبتة في أبدان غيرهم من الأسرى، وآخرين مطروحين على وجوههم مربوطة أرجلهم وأيديهم في أوتاد بينما يسلخ الجلادون جلودهم وهم على قيد الحياة، ولقد اهتم مصور هذه الفظائع الجهنمية بإيضاح هذا النوع الأخير من التعذيب، لأن ذلك كان أحب من غيره

لدى الآشوريين، فأظهر الجلاد وهو يشق بحد سكينه بعض الخطوط قبل أن يباشر عملية السلخ، كأنه لا يريد أن يشوه الكتلة اللحمية التي ستبقى بعد نزع الجلد لتعليقها على أسوار القصر كتذكار نصر، وقد عثر المنقبون على لوحة حجرية فيها رسم ناتئ يمثل ملك وملكة، ينعمان بتناول الطعام، في ظل عريش في بستان، وخلفهما الخصيان يروحون لهما بمراوح الريش الثمين، وهما يتبادلان كؤوس المدام، ونظرات الغرام، وأمامهما يتدلى من أحد الأغصان الوارفة رأس ملك أسير جاحظ العينين ما زالت الدماء تقطر منه .



وبعد أن ننتقل، كما فعلنا في هذا الكتاب، من أرض مصر الساحرة، لنجوب هذا البلد الذي كان من أوائل البلدان التي صهرت الحديد والفولاذ،

وبفضل ما طرقه أهلها منهما سيوفًا باترة، وآلات قاطعة، تمكنت من الارتواء بدماء جيرانها الأبرياء قرونًا عديدة، نشعر بالهلع والرعب والاشمئزاز من هؤلاء الأقوام الساميين، أقوياء الأبدان، فطس الأنوف، عند ذلك نتذكر البون الشاسع بين هذا وبين جمال ورقة ملامح الرؤوس الفرعونية التي لم تكن تقل حسنًا عن رؤوس أجمل النساء وأجسامهن الرشيقة وقاماتهن النحيلة المياسة التي نرى رسومها على جدران السراديب والهياكل وهم منشغلون في عبادتهم الهادئة البريئة، وكذلك نذكر أشباح أولئك النسوة الجميلات التي تزين ظلام القبور في وادي النيل.

نعم إن مصر كانت تفيض بأسمى مظاهر اللطف والبهجة منعكسة عن جمال نسائها، أما فيما بين النهرين فلا نرى شيئًا من ذلك، لأن الآشوريين قلما اهتموا بتصوير المرأة، على أن ما تركه لنا مثالو بابل من صورها لا يتم إلا على دمامة وجهها، وكذلك ثيابها الطويلة السميكة السمحة كانت تخفي تقاسيم جسدها.

كان ملاك آشور يعتبر المصدر الذي ينبعث منه كل ما يختص بالمسائل الدينية أو بالحياة الحربية أو بالأنظمة المدنية في كل أشكالها وأنواعها، فهو ظل الإله الأعظم "آشور" على الأرض، يقوم بخدمة شعائره الدينية كحبر أحبار، ويقود جيوشه يخضع شعوب العالم لنير سلطانه.

وكان الأشوريون لا يميزون بين إلهاهم وملكهم، واحترامهم للملاك كان أشبه بالعبادة، ولم يكن أحد من أفراد الشعب يجرؤ على توجيه الكلام إليه، فلم نر على الرسوم البارزة سوى الوزير الأكبر أو رئيس الخصيان يتحدث إليه.

أما في بابل فقد كان الملك يخضع للكهنة المجوس أبناء قدماء الكلدانيين وحفظة كنوز العلوم التي انتقلت إليهم بالتوارث، بنظام حكومة الخاصة، التي

يقول عنها ديودورس أنها لم تقبل بيهم غريبًا عنهم، ولكن التوراة قد ذكرت ما ينفي ذلك، وهو أن دانيال النبي كان من زمرتهم مع أنه كان غريبًا عنهم.

وفي كتاب هذا النبي اليهودي وصف بليغ لسلطة أولئك الكهنة الذين كانت أكبر مهام الأمور الدينية والمدنية تسند إليهم، حتى أن الملك نفسه لم يعمل إلا بإشارتهم حسبما كان يظهر من تفسيرهم الأحلام، أو قراءتهم الغيب باستطلا ع الكواكب.

على أن الثغرة الحربية التي كانت من أبرز صفات آشور لم تلبث أن انتقلت أخيرًا إلى بابل، حتى أن هذه المدينة المترفة، المولعة بالعلم، جارت في أيام الإمبراطورية الثانية عدوتها الشمالية في قسوتها وأطماعها، وحملت أرميا النبي على أن يلقبها "بمطرقة العالم".

ولقد نمت وارتقت عندئذ بسرعة، ولكنها لم تلبث أن سقطت على أثر ذلك الارتقاء والصعود بذات الأسباب التي رفعت نينوى وأسقطها، وكان ولاة الممالك الشاسعة التي أسسها آشور بانيبال ونبوخذ نصر ينزعون دائمًا إلى الاستقلال والعصيان، وكان نزوعهم هذا من أسباب الخطر الوجيهة على الملك، ومن ثم اضطراره إلى التسلط المستمر عليهم بيد من حديد.

ولقد روى لنا ديودورس شيئًا من هذا الأسلوب الإداري الذي كان متبعًا في هذا الحكم، نذكره فيما يلي، لأننا لم نعثر على سواه :

"كان الملاك، لاستتباب الأمن في بلاده، وإخضاع الشعوب لسلطانه، يؤلف كل سنة جيوشًا مختار قوادها من كل عاصمة من عواصمه، تعسكر خارج كل مدينة، ثم يعين لكل إقليم حاكم من المحامين له، وهذه الجيوش تسح كل سنة إلى أوطانها ليقوم غيرها مقامها، وهكذا كانت الشعوب المختلفة مضطرة

إلى احترامه لأن الجيوش كانت تعسكر على مقربة منها مستعدة دائمًا لتأديبها.

وكان هذا التجنيد السنوي المتجدد لا يسمح للقواد والجنود أن يتعارفوا لقصر المدة، فيأمن الملك كيدهم له وخروجهم عليه، ومن أولئك القواد تعين البلاد ولاة يفصلون في شؤونها المختلفة من دينية وإدارية وقضائية وغير ذلك".

على أننا لا نعلم شيئًا عن نظام الجيوش الآشورية، ولا نعلم إلا قليلًا عن خططهم الحربية، ولكن النقوش توقفنا على شيء كثير من أسلحتهم وعتادهم بحيث يمكننا أن نتصور علو كعبهم فيها بالنسبة لسواهم من معاصريهم.

وكان سلاح دفاعهم يتناول الخوذة، والدرع، والترس، والأحذية المتينة المرتفعة أما سلاح هجومهم فكان القوس، والسيف، والرمح، والمقلاع، والمزراق، والمنجنيق، والكبش، وهذه كانت بالغة من الإتقان على قدر ما وصلت إليه يد الإمكان في ذلك الزمان.

وكانت الجنود تنقسم إلى قسمين، المشاة والفرسان، علاوة على المركبات الحربية، وكانت جيوشهم دائمًا كثيرة جدًا، وهذه الكثرة في العدد تعوض ما ينقصها من النظام، ويمكن أن تتصور جيوش آشور وبابل بتلك الحشود عديمة النظام التي كان الملاك اكزركسيس يقذف بها الإغريق،

ومهما اتسع مجال التصور لا يمكننا أن نصدق ديودورس في وصفه لجيوش سميراميس الجرارة، وعددها الهائل، حين أرادت غزو الهند، قال نقلًا عن ستيزياس:

"كان جيشها يتألف من ثلاثة ملايين من المشاة، وخمسمائة ألف فارس، ومائة ألف مركبة حربية، عدا مائة ألف رجل، كل منهم يركب جملًا ويحمل سيفًا لا يقل طوله عن أربعة أذرع".

ولقد كان للآشوريين، والبابليين على الخصوص، مهارة فائقة في فن الحصار، يستعينون عليه بآلات حربية خاصة بذلك، تراها منقوشة على آثارهم.

وكان مصدر عظمة هاتين الدولتين في أرض الجزيرة قوة الجيوش ونشاط التجارة، وإذا كانتا قد روعتنا الشرق بمركبات الحرب والفرسان والجيوش الجرارة أجيالًا عديدة، فأن حركة تجارهما التي عمته كانت سببًا من أسباب تراثه وعظمته.

ولقد ذكرنا كيف كان منشأ هذه التجارة، وقلنا في كلامنا على الموقع الجغرافي الإمبراطورية "الكلدانية الأشورية" أن سببها ينحصر في كلمة واحدة هي " الطريق" .

وفي الواقع أن أرض الجزيرة كانت وقتئذ أكبر طريق للعالم المعروف، طريق تخلله محطات ومستودعات، وينتهي عند طرفيه إلى رأسين من بنادر التجارة البحرية القديمة، هما بابل وصور، وكانت أسواق "صور" بسبب ملاحتها، تجمع كل حاصلات البحر المتوسط من الأقمشة، إلى الأنسجة المصرية المزركشة، إلى حدد قبرس، علاوة على الآنية النحاسية الجميلة، والخيول، والجواري الإغريقية، والفضة الإسبانية وكان ملاحوها ينحدرون حتى جزر الكاسيتبريد (Cassiterides) على مقربة من شواطئ بريطانيا العظمي لجلب القصدير.

وكانت صور مع ذلك تضم إلى هذه الواردات النفيسة ما تخرجه مصانعها، ومصانع جاراتها من التحف، وما كانت تعرضه في تلك الأسواق مما يخرج من حاصلاتها وحاصلاتهن الزراعية، كالأقمشة الأرجوانية، وخشب الأرز اللبناني، وأصواف دمشق الملونة، والحنطة، والعطور، والعسل، والزيوت، والراتينج الإسرائيلي، وخراف وكباش ومعز قبائل العرب الرحل.

أما من بابل فقد كانت تقصد الخليج الفارسي أو الإقيانوس الهندي عند جزيرة أوفير الغربية لجلب اللؤلؤ، أو تجلب الذهب والعاج وخشب الأبنوس من بلاد الحبشة، والعطور، والشفوف، والشيلان الثمينة، والأحجار الكريمة من الهند.

وكانت هاتان المدينتان العظيمتان تتبادلان هذه التحف، وتتجران بها مع القوافل التي كانت تزدحم بها طرق بلاد ما بين النهرين، وهكذا كانت آسيا العليا تغص بالمستودعات العديدة التي كان يقصدها طلاب الرفاهة والتنعم ليأخذوا حاجاتهم منها تاركين بدلها أكداسًا من الذهب، على أنه لم يكف بابل ونينوى أن تكونا مع صور سماسرة تجارة العالم، بل كانتا تخرجان من مصانعهما الطنافس النفيسة والمنسوجات المطرزة، وسروج الخيل الفاخرة والأثاثات الثمينة، وقد سهل نهرا دجلة والفرات، والقنوات المتفرعة منهما، نقل البضائع على "السفن" التي تمخر هذه المسالك المائية مخترقة سهول وحقول أرض الجزيرة، كما نشاهد مثل ذلك في هولاندا الآن، وربما كانت لفظة "أطواف أو عربات" صلح من لفظة "سفن" التي استعملناها لما كان يصنع من المراكب في بابل وآشور لتجري في مياه الأنهر، وظلت زمنًا طويلًا عبارة عن ألواح خشبية مشدودة بعضها إلى بعض بجلود منفوخة، ولكن هذه المراكب تحولت فيما بعد إلى ما يشبه سفن الفينيقيين، واستخدمت لنقل المثقلات كالخيول والمركبات والأحجار الكبيرة، كما ظهر لنا من الرسوم، ومما ذكره ديودورس، إذ قال:

"إن سميراميس قد اقتطعت من جبال أرمينية قطعة من الحجر طولها مائة وثلاثون قدمًا ومنها خمس وعشرون، جرها البغال والثيران على شاطئ الفرات، ثم نحت على طرف كبير وانحدرت مع التيار إلى بابل، وهنالك نصبها في أشهر مكان مطروق، وهذا الأثر الذي كان موضع الحجاب السياح، والذي أطلق

عليه بعضهم اسم "المسلة" نظرًا لشكله، يعد من عجائب الدنيا السبع" .

وذكر هذا المؤرخ قبيل ذلك أنه كان على شواطئ النهرين مستودعات لما كان يرد من البضائع من مادي والبلدان المجاورة لها، وقد وصف هيرودوتس ذلك الطريق الطويل الذي يصل العالم الغربي بالشرقي، من شواطئ البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج الفارسي، نعم إنه كان لهذا الطريق مسالك كثيرة، ولكن لا يزيد أهمها عن ثلاثة وأربعة، وقد أشرنا سابقًا إلى أحدها وهو المسلك الحربي بين مصر ونينوى مارًا بمجدو وكاركيميش، والآن نذكر ما أشار إليه هيرودوتس واصلًا بين ساردس وصوص، لإننا لا نغالي إذا قلنا إن وادي الفرات ودجلة كان أكبر طرق العالم القديم، وأنه كان أول سبب من أسباب نشأة نينوى وبابل وحضارتهما، قال:

"وعلى طول هذا الطريق مساكن ملكية (ستاذم stathune) وفنادق عامرة جميلة، وهذا المسلك المأمون يخترق بلادًا آهلة بالسكان، وهكذا يبدأ السفر من سارديس من ولايات ليديا في فريجيا (Phrygie) حيث نرى نحو عشرين قصرًا، ومتى برح المسافر في فريجيا عرج على "هاليس" حيث يقف عند أبوابها التي لا يمكنه عبور النهر بسلام بدون المرور منها، على أن هنالك حصنًا عظيمًا قائمًا لحراسة هذا الممر، وبعد ذلك يخترق كابادوس إلى حدود سيليسيا مسافة ثمانية وعشرين يومًا، ولكن المسافر مضطر عند هذه الحدود أن يجتاز مضيقين، وأن يمر من حصنين، ثم يسير بعد ذلك مسافة ثلاثة أيام في سيليسيا (Cilicie) التي يفصلها عن أرمينية نهر الفرات، فيعبره بالمراكب.

أما أرمينية فإن فيها خمسة عشر فندقًا (Stathames) عامرة بالجنود، ويستغرق اجتيازها خمسة عشر يومًا، ويروي هذه البلاد أربعة أشهر تصلح للملاحة، ولا بد من عبورها، وأول هذه الأنهر دجلة، وبهذا الاسم يعرف

ثانيهما وثالثهما وإن كانا يختلفان عنه ولا يخرجان من البلد الذي يخرج منه، لأن ـحدهما يخرج من أرمينية والآخر ينبع من أرض المتيانيين (Matiauien).

أما النهر الرابع واسمه "جند" فقد قسمه سيروس (Cyrus) ٕلى ثلاثمائة وستون قناة، ومن أرمينية يدخل المتيان (Matiane) ويقطعها في نحو أربعة أيام، ثم يجتاز المسافر بعد ذلك "سيسي" (Cissie) في أحد عشر يومًا حتى يبلغ نهر شوارب (Choaspe) الذي تقوم على ضفتي مدينة سوز (Suse)، فمن ساردس إلى سوز يستغرق السفر مائة وأحد عشر يومًا، ويمر المسافر بمائة وأحد عشر فندقًا (خانًا).

وإذا كان موقع بابل وأشور الجغرافي قد ساعد على نجاح التجارة فيهما، فإن طبيعة أرضهما أجبرت سكانهما على توجيه العناية نحو الزراعة، وبما أن هذه السهول الرملية لم يكن يرتجي منها خير إلا بمداومة الاهتمام بها على نظام واسع، فقد كانت في وقت ما تخترقها الترع والقنوات من كل الجهات، وفي الجزء المنخفض من بلاد الجزيرة كانت القنوات في مستوى سطح الأرض، أما في آشور حيث كانت الأنهر أكثر انخفاضًا من الأراضي فقد مست الحاجة إلى استعمال وسائل متنوعة لرفع مياه الري، وكان المحراث البدائي هو المستعمل في الفلاحة، لأن طبيعة الأرض وقتئذ لم تكن تطلب ما هو أفضل منه.

أما محصولاتهما (أشور وبابل) فواحدة تقريبًا، أكثرها الحبوب كالحنطة والذرة والجاودار، ولكن آشور كانت تمتاز على بابل بجودة خمرها، كما أن بابل كانت تمتاز بالبلح (التمر)، وربما كان غرس النخيل أهم أعمال أهل بابل، وقد روي هيرودوتس أنهم كانوا يربطون شماريخ الفحال (الذكر) إلى شماريخ الأنثى ليتحققوا من التلقيح.

أما النقوش التي وجدت في بابل وأشور فإنها خالية من الإشارة إلى الزراعة

والتجارة مع أنهما كانا أعظم أشغال أهل البلاد، ويظهر أن الفن (الرسم والنقش) في هاتين العاصمتين الشامختين أهمل عامة الشعب فلم يهتم بالزراع والصناع والتجار وانصرف إلى الاهتمام بتخليد ذكر الآلهة والملوك والمحاربين، ولكن الآثار الخطية التي وجدت في مكتبة "آشور بانيبال" الخاصة بالحقول والمزارع، وعقود البيوع والرهون العقارية، أيدت رواية أولئك المؤرخين اليهود والإغريق الذين تغنوا مهارة سكان أرض الجزيرة (العراق القديم) في الشؤون الزراعة والمالية، ويجب ألا يغيب عن البال أن أغلبية سكان هذه البلاد كانت من العنصر السامي الذي اشتهر بدهائه وسعة حيلته ومن أمثلة ذلك قصة يعقوب (صغرة أولاد اسحق) الذي انتهز فرصة جوع أخيه البكر عيسو، فاشترى منه بكوريته بأكلة عدس[١٣]، فيالها من صفقة تجارية رابحة برهن على ما لهؤلاء الناس من المهارة في انتزاع النهز، نعم إن حب الكسب والتجارة غريزي في نفوس الساميين منذ القدم، ولكنه حب يقتضي الكثير من الحرص والصبر والجلد ومواصلة العمل، فالسامي إما أن يكون تاجرًا أم مرابيًا، ولوحات الآجر التي وجدت في قويونجك (Koyoundjik) تؤيد ذلك، ويظهر منها أن سعر فائدة القروض كان باهظًا حتى بلغ ٢٥%، وكان توقيع الكثيرين من الشهود على العقود والحجج والالتزامات بأختامهم أو بأظافرهم، كما جرت به العادة عندهم، يدل على أن ذلك كان يجري علانية وبطريقة مألوفة، من ذلك مثلًا صورة العقد الآتي:

"عقد بيع منزل بأخشابه وأعمدته ومهماته كائن في مدينة نينوى، يحده منزل "مانوكي آهي"، ومنزل "أنكيا"، وميدان الأسواق، وقد اشتراه المدعو "سيل عاشور" المصري الجنس من "أحصورو"، ومن المرأة "أمات سولا" "زوجة

---

(١٣) راجع من تكوين الإصحاح الخامس والعشرين والأعداد ٢٨ إلى ٣٢.

بعلها، بمنجم فضة في سارلادوري" الخ، وقد وقع على هذه الحجة سبعة "من الشهود، علاوة على تواقيع المشتري والبائعين".

ومن النظم السياسية والاجتماعية للشعوب الكلدوأشورية، وغير ذلك من الأدلة التي لدينا، نعلم أن سكان كلدة الأصليين قد اندمجوا وتلاشوا في الساميين. وهذا ما يحدث دائمًا في مثل هذا الامتزاج بين الشعوب، وهو أن نفوذ الجنس الأكثر ذكاء وثقافة ينبت رغم اندماجه في الأكثرية الهمجية، ولذا نجد أن أشور قد احترمت مدنية وعلوم قدماء الكلدانيين، واستوعبت كل ما وسعها استيعابه منهما، ولكن طابع الساميين الخاص كان السائد في كل ما يتعلق بالشئون الاجتماعية والسياسية، وهذا الطابع الخاص هو الغريزة والنعرة الدينية والحربية، وكذلك الخشونة والجفوة والشغف بالربح وبالتجارة، مع التجرد من الذوق الفني.

٢ - الأخلاق والعادات :

إن ما نعلمه عن حياة البابليين والآشوريين الخاصة أقل مما علمناه عن حياة المصريين، لأن النقوش الملونة على مصاطب الأخيرين، ودهاليز مدافنهم، لا مثيل لها عند الأولين ثم إن المقابر الآسيوية لم تحتفظ بشيء من الأسرار العجيبة التي وجدناها في وادي النيل، ولكنها مع ذلك هدتنا إلى شيء كثير.

ولقد وصفنا فيما مضى هذه الأوعية الفخارية الضخمة التي كانوا يستعملونها كتوابيت الموتى عند ضفاف الفرات، فهذه إما أنها كانت أغطية تبلغ نحو سبع أقدام طولا وثلاث أقدام عرض وقدمين ارتفاعًا، مغطاة أرضيتها بطبقة من الغاب يسطحون عليها الموتى، وإما أنها كانت عبارة عن وعاء من قطعتين يضعون فيه الجنة بعد أن يثنون ساقيها عند الركب، وهناك شبه أقبية خاصة بالأسر، مبنية من الأجر، وقد وجد في بعضها أحد عشر هيكل عظميًا وهذه

المقابر المختلفة وجدت دائمًا مطمورة في الأرض في رواب وتلال، وأرض كلدة غاصة بمثل هذه المرتفعات، حتى أنها لكثرتها تجعل الانسان يظن أنها أرض مقدسة اتخذها الأشوريون لنومهم الأبدي.

وقد وجدوا كل واحد من هذه الهياكل العظمية ممسكًا بيده اليسرى وعاء من النحاس، وبقربه أطباق من الأجر أو المعدن لا يزال فيها أثر الطعام، كنوى البلح، وشواك السمك، وعظم الطيور، لأن القدماء كانت معتقداتهم تدفعهم إلى دفن هذه الأطعمة مع الموتى كزاد لسفر طويل نحو المجهول، وما عدا ذلك فقد سكتت عنه هذه القبور.

على أن هذه النقوش التي أسهمت في تفصيل ما يتعلق بالجيوش والحروب ووحشية التنكيل بالأسرى وما إلى ذلك لم تذكر لنا إلا شيئًا قليلًا عن تلك الحياة الاجتماعية، وبالرجوع إلى النقوش البارزة أواني روايات المؤرخين الأغريق نجد ما يروي غليلنا عن حياة أهل نينوى وبابل الخاصة.

ولكننا نقدر أن نستنتج من فخامة ملابسهم وعدة خيولهم ودقة أسلحتهم أن كثير من الصنائع المختلفة كان زاهر في العاصمتين، وأن وسائل الترف والزينة كانت منتشرة فيهما انتشارًا كبيرًا، وهناك وصف هيرودوتس لبعض ملابس البابليين:

"كانوا قبل كل شيء يرتدون قمصانًا طويلة من الكتان تصل إلى أقدامهم، وفوقها قمصان أخرى من الصوف، وفوق ذلك عباءة من نسيج أبيض ، أما أحذيتهم فقد كانت تقرب من أحذية سكان بيوتيا (Beotiens)، وكانوا لا تكون شعورهم بل يتركونها مدلة، ويضعون على رؤوسهم قلانس على شكل التيجان، ويتدلكون بالطيوب.

ولكل منهم ختم، وعصا مصنوعة باليد، في رأسها شكل تفاحة أو وردة او زنبقة أو عقاب، أو أي صورة أخرى، لأنه كان محظورًا عليهم حمل عصي ليس لها زخرف رمزي"، وهذا الحظر الغريب المختص بحلية المعي لم تغب معرفة سببه عنا، مع أن هيرودوتس لم يذكره، وذلك لأنه كان موجهًا إلى الأختام دون العصي، إلا إذا كانت أيدي العصي صالحة لأن تقوم مقام الأختام عند اللزوم.

وقد رأينا كيف كان كل شخص يهم لمثل هذه العلامات الشخصية التي كانت تقوم مقام التوقيع القانوني لبصم الآجر الطرى، حتى أن الإقدام على تقليدها كان بلا شك محرّمًا كما هو الحال عندنا بخصوص الأختام التجارية والعلامات الصناعية المسجلة.

أما الثياب التي ذكرها المؤرخ الاغريقي فكانت مما ترتديه الطبقة المتوسطة من الشعب، لأن ملابس الكهنة والملوك كانت أفخر وأثمن من تلك، كما يظهر لنا من الرسوم التي وجدت على آثارهم، ففيها ترى أن ثياب الكهنة أو الملوك كانت أطول من ثياب أفراد الشعب، وكانت موشاة ومزركشة بالنقوش البديعة، وأطرافها محلاة بالرساعات والهداب، وهذا النوع الأخير من الزركش كان يعتبر في ما بين النهرين آخر أزياء الرشاقة والأناقة، وكانوا يحلون به ملابس عظماء الدولة، وعدة الخيل التي تجر مركبات الملك الحربية.

وكانت طبقة العامة تسير حافية الأقدام، عارية الرؤوس، اكتفاء بشعورهم الكثة لوقاية هذه الرؤوس من تأثير حرارة الشمس، أما الكهنة وكبار رجال الدولة، ولا سيما رجال القصر، فكانوا يعتمرون بملابس تختلف أشكالها باختلاف مراكزهم وأعمالهم، أما الملوك فكانت تيجانهم تشبه ما يلبسه الفرس الأن (Tiara)، أما لبس النعال فكان مقصورًا على الأمراء والأثرياء ورجال الحرب.

وهذه كانت على أشكال متنوعة، منها الصندل أو الغرفة، والحذاء العالي

الذي يصل إلى مافوق الركبة.

ولقد كانت للآشوريين من جميع الطبقات أدق عناية بشعور رؤوسهم ولحاهم، من الملك إلى البقار، ومن الكاهن إلى الفلاح، تظهر رؤوسهم كأنها خارجة توًا من دكان المزين، ولم يكن يعوقهم عن الاهتمام بزينة شعورهم أي أمر مهما عظم شأنه، وكانوا أحيانًا يربطون شعرهم الكثيف بشريط أو عصائب زينة، أو يمشطونه ليرتد إلى الخلف وينزل على القفا في صفوف منتظمة من الخصل المجمدة، وكذا كانت لحام طويلة مجعدة تجعيدًا محكمًا كأنه مكواة شعر، وكانت شعور ولحى الآشوريين والساميين تتشابه من حيث الكثافة والجعودة الطبيعية في الشعر المسترسل.

أما المرأة في ما بين النهرين فإننا لانعرف عنها في إبان مجد بابل ونينوى إلا النذر اليسير، لأننا لم نجد في أي مكان وصفًا لجمالها وملابسها، وما كان عليه ذوقها، وكيف كانت تقضي وقتها، ولكن ذلك لا يمنعنا من الحكم بأنها كانت، ككل بنات جنسها، كثيرة الاهتمام بكل مايزيد محاسنها، مستعينة بالأقمشة والحلي والعطور، وكل ما يشفي غليل ولعها بالدلال والغنج، فالمرأة في نينوى القوية، أو بابل الداعرة، لابد أنها لم تكن لتذعن لفتيات صهيون المتعجرفات اللواتي أتى ذكرهن في الإصحاح الثالث، والعدد السادس عشر، من نبوة أشعيا، حيث قال:

"وقال الرب، من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الاعناق "وغامزات بعيون وخاطرات في مشيهن، ويخشخشن بأرجلهن، يصلع السيد "هامة بنات صهيون، ويعري الرب عورتهن، وينزع السيد في ذلك اليوم زينة "الخلاخيل والضفائر والأهلة، والحلق والأساور والبراقع، والعصائب والسلاسل "والمناطق، وحناجر الشمامات والأحراز، والخواتم، وخزائم الانف، والثياب "المزخرفة، والعطف

والأردية والأكياس. والمرائي والقمصان والعمائم والأزر".

على أن استعمال الحلي والعطور لم يكن مقصورًا على النساء، فقد مر بنا ماذكره هيرودوتس، وهو أن أهل بابل جميعًا، إناثًا وذكورًا، كانوا يتدلكون بالطيوب، أما الآشوريون فقد رأينا من الرسوم المنقوشة أنهم كانوا يتحلون بالعقود والأساور والدمالج والأقراط، فهم بلا شك قد أخذوا عن الساميين هذا الشغف بالتحلي بهذه الحلي الغالية.

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن أهل نينوى كانوا أصلب عودًا وأكثر خشونة وجفوة من أهل بابل، حتى أن عظمائهم كانوا يزهدون في نعيم القصور فيهجرونها إلى ساحات القتال، ومنها إلى ميادين الصيد والقنص حيث ينازلون أشرس الحيوانات المفترسة وجهًا لوجه.

وربما كانوا يجرون على قاعدة وحدة الزواج. أما في بابل التي كانت، لانغماسها في الترف والملذات. أقل تعطشًا إلى الدماء وطموحًا إلى المزيد من المجد، فخورة يتفوقها العقلي، شغوفة بكل ملاذ النفس والجسد، تطلب السؤدد عن طريق هيبة العلم وسحر حياة الترف، فإن تعدد الزوجات كان شائعًا خصوصًا لدى الملوك.

ولما وصف النبي دانيال ولمة بيلشارصر(١٤) (ملك الكلدانيين) ذكر أكثر من مرة أن "الملك وعظماؤه وزوجاته وسراريه" حضرن تلك الوليمة، ومن ذلك نعلم أنه كان للملك "زوجات وسراري"، وأن البابليين لم يكونوا يحجبون النساء، ثم أن المثالين والنحاتين البابليين كانوا أقل حذر من إخوانهم الاشوريين في الإفصاح عما يمس المرأة، على أن ما تركه لنا فنانوهم، وإن كان لا يكشف لنا

---

(١٤) دانيال الإصحاح الخامس من العدد الاول إلى العدد الرابع.

شيئًا عن محاسن المرأة فذلك لأن مثاليهم كانت على ما نظن تعوزهم المهارة الفنية، أكثر مما كانت تنقصهم النماذج الجميلة.

على أن تعدد الزوجات عند ملوك بابل لم يمنعهم من اختيار واحدة منهن لتقدم لها فروض الاحترام والخضوع بصفتها "ملكة" ،حتى إن كرامتها كانت تحول دون اختلاطها بغيرها من الزوجات أو السراري، ويمكن الاستدلال على ذلك وغيره مما ذكره دانيال في وصف تلك الوليمة الداعرة التي كان النساء يكرعن فيها الخمر في أواني معبد أورشليم المقدسة، على نغمات الموسيقى، وصخب السكارى وصباح المهرجين الذي يصل إلى أسماع "الملكة"، ثم يعقب ذلك صمت مزعج يشمل القصر وكل من فيه، تخرج الملكة من خدرها وهي ترتجف فزعًا وتنادي حاشيتها التي تخبرها أن رؤيا مفزعة قد ألقت الرعب في وسط الوليمة، حتى أن بيلشاصر نفسه بقي على كرسيه ممتقع اللون خائر القوى، يكاد يغشى عليه من شدة الخوف، ويخيل إليها أن خطرًا عظيمًا يحدق بالملك، فتذكر إسم رجل ربما كان قادرًا على دفع هذا الخطر، فتدخل بيت الوليمة وتقول للملك(١٥):

"عش إلى الأبد، لا تفزعك أفكارك ولا تغير هيئتك، يوجد في مملكتك رجل فيه روح الآلهة القدوسين، والملك نبوخذ نصر أبوك جعله كبير المجوس والسحرة والكلدانين والمنجمين".

على أننا مدينون لهيرودوتس بعض تفاصيل غريبة عن بعض عاداتهم المختصة بالزواج، والمهارة المقدسة، فهذا الشكل من البقاء الذي كان شائعًا في كل أنحاء الشرق، ولا يزال باقيًا في بعض جهاته، هو آخر أثر من الاضطراب القطري الذي فشا بين الجماعات المتمدنة، فهو من هذه الوجهة أدعى إلى

(١٥) دانيال الاصحاح الخامس والمدد العاشر وما بعده.

الملاحظة، لأن بعض الشعوب اتخذ منه سلمًا لإثبات الحق لكل إنسان في حيازة أية امرأة شاء، وهو حق توالت عليه القرون حتى انتهى بأن صار مقدسًا محترمًا، وفي هذا الصدد يقول هيرودوت:

"وتلك كانت الشرائع المرعية عند البابليين، وربما كان أحكمها، على ما أظن،هو ما سأذكره، وكان مألوفًا في جهات أخرى.

كانت كل قرية تجمع فتياتها البالغات سن الحلم كل سنة في مكان معين ، حيث يجتمع فيه حولهن عدد كبير من الرجال الراغبين في الزواج، فيأتي "الدلال" ويوقفهن، ثم ينادى لبيعهن وحدة بعد الاخرى، مبتدئًا بأوفرهن جمالًا، حتى إذا بلغ ثمنها القدر المنتظر، باعها، ثم عاد إلى المنادة لبيع غيرها مشترطًا على المشترين الزواج بهن، وهكذا كان البالغون سن الرشد من أغنياء البابليين يتنافسون في شراء الأجمل من اولئك الفتيات.

أما الشبان من عامة الشعب، فنظرًا لفقرهم كانوا يقنعون بالزواج من قليلات الحظ من الحسن، لأن الدلال كان عندما ينتهي من بيع الجميلات، يبدأ بعرض الدميمات، والمشوهات، وذوات العاهات، ومع كل منهن قدر من المال يعوض ما ينقصها من جمال، مشترط على من ترسو عليه الصفقة أن يتزوج بالفتاة زواجًا قانونيًا، ويستعين بما ستحمله إليه من مال على القيام بأود العائلة، وهكذا كان المال الذي يدفع ثمنًا لوافرات الحظ من الجمال، ينفق في سبيل التعويض لقليلات الحظ منه.

ولم يكن للوالد الحق في اختيار الزوج لابنته، وكذلك كان على المشتري أن يقدم الضمان الكافي على إتمام عقد الزواج من يشتريها أو يختارها، وفي حالة عدم الوفق بين الزوجين يفترقا على شرط رد المال (المهر أو البائنة)

إن امكن، وكان يباح لرجال القرى أو الضياع الأخرى أن يشتركوا في هذه السوق البشرية، وهذه الشريعة التي سنوها بكل حكمة لم يكتب لها الدوام، وذلك لأنهم فكروا في طريقة أخرى لاجتناب إساءة معاملة بناتهم ولمنع أخذهن إلى غير بلادهن، فمن عهد سقوط بابل وإساءة أعداؤها إلى أبنائها وضياع أموالهم، قل من لم يفرط في عرض ابنته طلبًا للمال عند الحاجة.

وكانت للبابلين شريمة مخجلة تحتم على كل امرأة بابلية أن تذهب مرة في حياتها إلى معبد "فينوس" (الزهرة) وتقدم جسدها إلى أجنبي، وكثيرات من ذوات اليسار اللواتى يأنفن من الاختلاط بغيرهن، كن يحملن إلى أمام المعبد في مركبات مقفلة، وهناك يجلسن وخلفهن العدد الكبير من الخدم الذين رافقوهن، أما سواهن فكن يجلسن في الحظيرة المقدسة التابعة للمعبد، وبعضهن يجثن، وغيرهن يذهبن، وكنت ترى الرجال الأجانب يتمشون في الحظيرة لكي يختاروا من تروق في أعينهم منهن، ومتى جلست المرأة في هذا المكان لا يجوز لها أن تعود ما لم يلق إليها أجنبي نقودًا في حجرها، قائلًا لها "إني أوصي بك الآلهة ميليتا (Mylitia) وكان الأشوريون يطلقون هذا الاسم على فينوس، ومهما يكن المبلغ الذي يلقي به إليهن قليلًا فليس لهن أن يرفضنه لأنه يصبح مقدسًا، ومتى ألقي إلى امرأة منهن وجب عليها أن تتبع في الحال من ألقاه إليها، كما أنه ليس للرجل وبعد ذلك أن يتحول عنها إلى سواها، وبعد أن توفي المرأة نذرها للآلهة باختلاءها بأجنبي يسمح لها بالعودة إلى مسكنه،. وكانت الوافرات الحظ من الجمال أسعد حالًا من غيرهن، لأنهن لم يكن في حاجة إلى طول الانتظار، نظرًا لأن الإقبال عليهن كان ميسورًا، أما القليلات الحظ من الحسن فقد كن مضطرات إلى الانتظار طويلًا حتى يوفين نذورهن، وقد يطول مكثتهن بالمعبد ثلاث أو أربع سنوات، وهذه العادة كانت مرعية في جزيرة قبرص أيضًا ".

ولما كانت الآثار لم تقدم لنا شيئًا يصح الاعتماد عليه لمعرفة حياة سكان

ما بين النهرين الخاصة، فإننا لا نرى خيرًا من ذكر ما رواه هيرودوتس عن مرضاهم، ودفن موتاهم، والعائشون على أكل السمك منهم، قال:

"ربما كان أفضل ما نوّه من الشرائع غير المختصة بالزواج هي القوانين الخاصة بالمرضى، فقد كانوا، نظرًا لعدم وجود الأطباء، ينقلون مرضاهم إلى الميادين العامة، وهناك يصف لهم من يراهم ما يحتمل أن يكون جربه بنفسه أو سمع عن فائدته من علاج أو دواء لمثل داء المريض، وكذلك كان يتحتم على كل من مر بمريض أن يسأله عما يشكو منه، أما الموتى فكانوا يحنطونهم بالعسل، وكانت شعائر الدفن لا تختلف كثيرًا عندهم عما كان متبعًا عند قدماء المصريين، وكلما ضاجع بابلي إمرأته وجب عليه أن يحرق بخورًا ويجلس بقربه، وكذلك تفعل المرأة، ثم يغتسلان عند بزوغ الفجر، لأنه لم يكن من الجائز لهما أن يمسا آنية ما لم يغتسلا، والعرب أيضًا يراعون هذه العادة، تلك كانت الشرائع والعادات المرعية عند البابليين، كان ثلاث قبائل منهم لا تأكل إلا السمك، وكانوا بعد صيده يجففونه في الشمس، ثم يسحنوه في المساحن وينخلوه بالمناخل، ويصنعون منه فطائرة وخبز".

هذا كل ما أمكننا ايراده استنادًا على القليل الذي عثرنا عليه قديمًا وحديثًا من آثار آشور وبابل، ولذلك لم نتمكن من الإفاضة في الكلام على هاتين المملكتين كما أفضنا في الكلام على حضارة قدماء المصريين، وعسى أن يكشف لنا المستقبل ما يساعدنا على زيادة الإلمام بهذا التاريخ القديم.

ويحسن بناء قبل أن نغلق هذا الباب أن نذكر أنا لم نجد لسواد الشعب في آسيا حظًّا من الذكر في التاريخ، لأن هم الكتاب والفنانين هناك كان منحصرًا في الإشادة بذكر الأعمال المجيدة التي قام بها هؤلاء الذين حلت بهم لعنة أنبياء اليهود البليغة.

الباب السادس

المعتقدات الدينية

إن اكتشاف الخط المسماري (أو الاسفيني) الذي مكننا من قراءة النصوص البابلية والآشورية قد أحدث إنقلابًا عظيمًا في آرائنا الدينية، لا يقال عن الانقلاب الذي طرأ على معلوماتنا التاريخية وغير التاريخية.

فقد كنا إلى أقرب عهد لهذا الاكتشاف العلمي العظيم نعد اليونان من حيث الوثنية، واليهودية ، من حيث المسيحية، المهدان اللذان خرجت منهما أدت الآراء وأصوبها ، التي أشاعت في نفس الإنسان أجمل الماء الدينية وفتحت أمامها أبواب السعادة والتقوى والسلوان.

أما الآن فقد أصبح من المستحيل التمسك بتلك النظريات العتيقة، فلا اليونان ولا اليهودية جاءت بجديد في عالم الأديان، بل إن الذي فعله كل منهما بدوره هو تهذيب ما آل إليه من السلف، تبعًا لسنة التطور الأبدية، التي تنطبق على الآلهة والأرباب، إسوة بانطباقها على البشر وسائر الخلائق على حد سوى، نعم إنهما أدخلتا الكثير من التحسين والتغيير والتزويق والتنميق ولكنهما لم يحيدا عن السبل التي طرقا من سبقهما من الشعوب نحو الأبدية.

وحسبنا أن نلقي بنظرنا على أهرام مصر، أو نطالع أناشيد هوميرس الإغريقي لتحكم باستحالة قيام مثل تلك الآثار العجيبة عفوًا على أيدي أناس متوحشون ما زالو يعيشون على الفطرة لقرب عمرهم ببدء خلق الإنسان،

وكذلك عندما نشاهد عظمة "يهوه" (الله عند العبرانيين)، أو جمال الاولمبيا عند الإغريق ندرك أن فكرة الألوهية لم تنبثق طفرة في قلب البشر.

على أن العلم الحديث الذي أعاننا على الارتداد في سلم الكائنات بالحيوان اللبون إلى الحيوان المتعدد الأرجل (كالحبار أو فرج البحر)؛ وبالانسان المتمدن إلى متوحش العصر الحجري، قد كشف لنا القناع الآن عن سر تكوين المعبودات، فيه عرفنا أنهم ولدوا على صورة مبهمة عديمة الشكل، مفزعة، في مستنقعات كلدة الشفلى، ثم رأيناهم فيما بعد وقد ألبسوا له من الحسن، والصلاح، وحب الخير، والقدرة على جلب النفع ودفع الشر، فارتفعت نحوهم أذرع أجيال عديدة من البشر، يحدوهم الإيمان والثقة والإعجاب والحب.

فكل الأساطير المختصة بآلهة الإغريق، وكذلك قصة الخليقة الواردة في سفر التكوين من توراة العبرانيين، تجد مثلهما في معتقدات كلدة وأشور الدينية.

والأصل الأساطيري الذي وضعته عقول نوابغ هذا الشعب القديم، الذكي، السريع التصديق، كان وافرًا وخصبًا ومتنوعًا حتى وفى بكل الرغائب المختصة بالأبدية وما وراء الطبيعة، التي سببت الويلات لبلاد الغرب لأكثر من ثلاثين قرنًا، وها نحن نرى شعوبنا المتمدنة تعيش روحيًّا الآن على المعتقدات الكلدانية والديانات التي أنجبتها.

وقد ولع أهل القرون الوسطى بالشعوذة والتنجيم والسحر وهذه كلها ولدت وترعرعت من أقدم الأزمنة على ضفاف نهر الفرات، حتى إننا ما زلنا إلى اليوم نستعمل بغير انتباه، بعض التعابير والألفاظ التي كانت مألوفة الاستعمال لدى مجوس بابل، كقولنا "سيىء الطالع" أو "نجمه في صعود" أو "في ساعة نحس" ...إلخ.

وبتأملنا في شعائر الإغريق الدينية برموزها، واستعاراتها، وفنونها الممتزجة بحياة روما وأثينا الوثنية، ترى أننا نعيد إلى الحياة في صورة "المشتري" (Jupiter) و"الزهرة" (Venus) و"عطارد" و "إله الحب" (Cupidon) ديانات آسيا القديمة مزخرفة بما أدخلته عليها عبقرية الذوق الإغريقي.

وفي واقع الأمر نجد أن الجنس الآري لم يخلق دينًا، ولكنه لما فطر عليه من دقة الشعور وسمو الخيال عرف كيف يزين الآلهة بجمال علوي، ولكنه لم يعرف كيف يفهمها، أما الجنس الذي انتزعها من أحضان الطبيعة، وفوضى العناصر، وأعماق السموات، فإنه الجنس السامي الذي تدين له الإنسانية بكل رموزها الدينية من أبسطها إلى أعقدها وأعمها.

ثم إن اليهود الساميين هم الذين حللوا وحققوا أحلام وأوهام كلدة القديمة المشوشة، وخلقوا منها الأرباب الذين سطع نورهم فيما بعد من فوق قمة الأولمبيا اليونانية.

وكذلك اليهود الساميون هم أول من جهر باسم "يهوه" الرهيب من قمة طورسينا، وهم الذين جعلوا فيما بعد شفق المسيحية يضيء العالم.

وكذلك العرب الساميون هم أول من علم بالتوحيد المطلق، فقهروا ممالك العالم باسم "الله" وفتحوها فتحًا روحيًا استمر في التوسع والانتشار بعد توقف الانتصارات المادية التي لم يبق من نتائجها إلا القليل.

والساميون هم الذين أخضعوا أهل الغرب إلى أوهامهم، ومن يعلم مدى تأثيرهم في الشرق؟ فالهند مجاورة لما بين النهرين؛ وبوذا (معبود الهنود) يشبه كل الشبه يسوع المسيح (معبود النصارى)، ثم أن شهرة حكماء الكلدانين التي اجتذبت إلى بابل فلاسفة الإغريق الذين كانوا يعتزون مجدهم الأدبي، لم يصعب

عليها أن تجتذب كذلك الحجاج المتعطشون إلى معرفة الحق من ضفاف نهر (الجانج ange) المقدس (في الهند).

وكذلك قد تمكننا الآن من صبر غور لغة الكلدانيين وآدابهم ودينهم، وعلمنا عن يقين أن هذا الدين كان مصدر كل ديانات أهل آسيا القديمة، من يهود، وسوريين وفينيقيين وغيرهم، حتي ميثلوغيا (أساطير دينية) الإغريق، كما أوضحنا منذ قليل.

ويمكننا أن نجزم الآن أنه لم يكن لكلدة القديمة، كما لكل الممالك البابلية والآشورية، سوى دين واحد، لأن عبادة "قوى الطبيعة" مضافًا إليها "تكريم الموتى" كان على شواطئ الخليج الفارسي وكل أنحاء المعمورة، أول عبادة جرى عليها الناس، ثم حولها دهاء الساميين شيئًا فشيئًا إلى آلهة روحانية بدت لنا في آثارهم وكتاباتهم المسمارية.

وهذه الآلهة صارت فيما بعد آلهة الإغريق، ولكنها قلّت فوق ذروة جبل الأولمب اليوناني، وتألمت بعد أن انفصلت عن العناصر التي نشأت منها، إلى أن تجلت شخصياتها واتضح حسنها وإحسانها، ثم أخذت مجموعاتهم المألوفة تنتظم وتنسق، وظهرت العلاقات التي تربطهم بعضهم، والدور الذي على كل منهم أن يمثله على هذه الارض.

ثم إن الكتاب والشعراء والفنانين قد أفاضوا في وصفهم والإعجاب بهذه العبقرية الإغريقية البارعة التي نشرت في العالم معنى الألوهية، فأبكت الحوريات عند شواطئ الينابيع والبحيرات، وأضحكت الفون (إلاه الحقول والرعاة) بين أشجار الغابات، وأركبت أبولو (إلاه الشمس والموسيقى) على مركبة الغزالة، ولله در الشاعر الفرنسي "ميسيه (Musset)" إذ قال ما معناه:

" أتأسف على زمن كانت السماء تخطر وتتنفس على الأرض بين أناس تعبد الله، حينها كانت، "فينوس– عشتروت"، ابنة اللجة المريرة، تتكف مدامع أمها، وكانت لا تزال عذراء، فتخصب العالم وهي تجدل شعرها".

ولكن الزمن الذي يأسف عليه هذا الشاعر كان عريقًا في القدم، لإنه عندما بدت فينوس (الزهرة)، وكانت بعد عذراء، فوق أمواج بحر "إيجه" (Egee) الزرقاء لم يكن ذلك أول ظهورها على الأرض، بل كان عودة إلى الظهور، فبكارتها الطاهرة كانت إدعاء، واسمها لم يكن جديدًا، فما كانت "أسرته" (Astarte) أو عشتروت سوى إيستار (Istar) الكلدانية، بهجة البشر والآلهة، التي اسكرت آسيا منذ قرون خلت بفجورها.

وكذلك إبنها كيوبيد (cupidon) الصغير، الذي انصرف إلى اللعب واللهو بقلوب الناس، وعيناه معصوبتان، ولكن صورته على الأواني الإغريقية القديمة ترينا إياه مراهقًا على صدر هذه الآلاهة نشوان بسكرة الفسق بالمحارم، فهذا إبنها كان يغمرها قبلًا، تحت سماء آشور، بحب الابن وعشق الزوج الولهان، وكان اسمه وقتئذ "تموز"، وكانت أمه "إستار" تذوب فيه وجدًا حتى هان عليها أن تفتح أبواب الجحيم لتنقذه من عذاب النار والموت، مزدرية بغضب أختها "اللات" (Allat)؛ وهي بروسربين Proserpine الأسيوية، ملكة المناطق السفلى، في غزوة شهيرة ذكرنا أسطورتها فيما سبق.

ثم أن جوبيتر، إلاه الصواعق، والرب الرهيب، الذي كان تقطيب حاجبيه يزلزل الأولمب (Olympe) ساد سلطانه قبلًا باسم "أشور" (Assur) أو باسم "بل" (Bel)، وكان أيضًا ممسكًا بزمام الصواعق في تلك الأزمان، وكان شعاره النسر (Aigle) ولم يخف ذلك على الإغريق، فقد وصف هيرودوتس هيكل هذا الإلاه كما رآه في بابل، وقد سماه تارة "جوبتر" وتارة "جوبتربيلوس" (-Jupiter

Belus) وهذه المشابهات كثيرة جدًا حتى أنه لا يمكن لا ذكر أهمها في هذه العجالة، لأن "أوانس" (Oannes) الإلاه السمكي الذي انبثق من أمواج الخليج الفارسي، كما أعتقد الكلدانيون، لكي يحمل إليهم أول عناصر الحضارة، يطابق "نبتون"، و"أنا" (Ana)؛ زوج "اللات" (Allat) وملك الجحيم هو "بلوتون" (Pluton)، و "فول" (Vul) إلاه الجو، هو جد "ساتورن" (Salrnan)، و"هيا" (Hes) أو "سلمان" (salman) المخلص، هو المثال الذي احتذاه الإغريق لهرقلهم الجبار.

والمثلوغيا (الأساطير) الآشورية كاليونانية تقول بوجود اثني عشر إلاهًا عظيمًا، وهذه المجموعة الإلاهية تنقسم إلى مجموعات ثلاثية، أحدها ينطبق تمام الانطباق على "الثالوث الأخوي" المكون من جوبتر– رب الأرباب، ونيتون– رب البحر، وبلاطون رب الجحيم أبناء سترن، saturn إلاه الزراعة).

وهكذا يكون الأسلوب الذي جرى عليه الإغريق، وتبعناهم فيه في تسمية الكواكب السيارة، والنجوم، وبروج السماء وصورها، بأسماء الآلهة وأنصاف الآلهة، وكائنات خرافية، موروثًا عن الكلدانيين، وقد رأينا أن التنجيم كان علمًا له شأنه على ضفاف الفرات حتى اختلط بالدين.

فأسماء الكواكب والسيارات أورانوس، وزحل، والمشتري، والزهرة، والمريخ، وعطارد، وهرقل (الجائي)، والثريا، وغيرها التي نراها الآن في سماء الغرب المسيحي، قد تردد ذكرها في أفواه الكلدانيين كما هي تمامًا، أو مع اختلاف في اللفظ لا يكاد يذكر، من خمسين أو ستين قرنًا، ولكنهم كانوا يرمزون بها إلى معبودات حقيقية، لأن عبادة الكواكب كانت أول ما خطر بال البشر تحت سماء كلدة الصافية.

هذا من حيث نصيب الأغريق من ديانات ما بين النهرين القديمة، ذكرناه بإيجاز على قدر الإمكان، والآن نتكلم عما اقتبسته عنهم اليهودية ثم المسيحية.

إنّ كل ما جاء في التوراة عن فوضى عناصر الكون الأولى، "وأن الأرض كانت خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله برف على وجه المياه، "وعن الفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد" الى آخر ما ورد في الإصحاح الأول من سفر التكوين وما بعده، عن خلق الكون، والتسليم بوجود الحيوانات قبل الانسان، وقصة الطوفان ولك نوح، وبرج بابل،[١٦] وبلبلة الألسن، كل هذا نجد ما يشبهه تمام الشبه في أقدم النصوص المسمارية. وكذلك الاسم "الوهيم" (Elohin) الذي أطلقه اليهود على معبودهم، واسم "الله" الذي يستعمله المسلمون كلاهما "بابليان" بالمقطع الأول الذي يبدآن به وهو "إل" أو "أل" ومعناه بالكلدانية "الكائن الأسمي".

ويمكننا القول على وجه التعميم أن دياناتها الغربية الكبرى اشتقت من الديانات الفلكية والطبيعية التي كانت شائعة في الشرق القديم بعد أن قربها الدهاء السامي إلى الإفهام وصورها عملية، ثم زخرفها الخيال الآري وجعلها روحية.

والآن إذا رجعنا إلى أصل عبادات الآشوريين والبابليين فهل نجد لها هذا الأساس الذي تقوم عليه كل الديانات الطبيعية، كالذي رأيناه في مصر وهو عبادة الشمس، وعبادة الأموات؟ ، فمن المسلم به أن "كوكب النهار" كان من أعظم معبودات كلدة، وكانت له هياكل في كل مكان، حتى أنهم كرسوا له مدينة بأسرها هي "سبارا" (sippare)، حيث كانوا يشعلون في معابدها نارًا لا تنطفيء تكريمًا للشمس.

---

(١٦) سفر التكوين الإصحاح الحادي عشر.

أما الأموات، وإن لم يكن لهم في ما بين النهرين الشأن العظيم الذي كان لأموات وادي النيل، فإنه كان لهم ذات النفوذ في سلوك الأحياء، لأن الكلدانيين والآشوريين كانوا يؤمنون بخلود الروح، وإن كانت آراؤهم من جهة هذا الخلود غير واضحة ومحكمة كما كانت في مصر. فالروح في إعتقادهم كانت تظل بعد دفن الجسد حائة هائمة على وجه غامض، وإذا أخذنا بوصف نزول "إستار" (Istar) إلى الجحيم، رأيناها حزينة.

كانت الأرواح تعيش في ظلام الأبدية وغذاؤها التراب وهي تبكي على اختفاء نور النهار، أما مصير الصالحين والطالحين فكان مشوشًا، لأن فكرة الثواب والعقاب لم تتدخل مع فكرة الدفن. فما كان أشد الآلام التي تصيب أرواح الأموات، من البقاء بلا دفن، هائمة كالظل الحائر المضطرب بين السماء والأرض، ولكن انتقامهم كان يلحق ذوي قرباهم الذين نسوهم، وهكذا كانت تستحيل الروح الغاضبة إلى شيطان مؤذ يمطر المصائب على رؤوس المقصرين، أما الميت الذي يعتني بتحنيطه ودفنه، وتزويده بما كان يحبه في حياته، وبالاطعمة التي تلزمه في حياة الظلام التي قدرت له، فإن روحه لا تعود إلى الأرض إلا لتحسن إلى الذين حققوا لها الراحة الأبدية.

والمقابر التي اكتشفت في كلدة السفلي كثيرة العدد، بينما نجد أن المنقبين لم يعثروا على قبر واحد في كل أشور، على رغم المكافأة العظيمة التي وعد بها "لايار" لمن يعثر على واحد منها.

وربما كان سبب ذلك أن كلدة كانت في نظرهم أرضًا مقدسة دفن فيها كل أموات مابين النهرين، بما فيهم أموات الشمال، وكانت الأسرة التي تمكنها ظروفها المالية من بناء مقبرة لأمواتها، تفضل أن تبنيها على ضفاف نهر الفرات الأدنى حتى يسهل نقل الموتى إليها بطريق النهر، أما الفقراء، والصناع والعمال،

فإنهم كانوا يرقدون رقدتهم الأخيرة تحت طبقة رقيقة من التراب، على مقربة من بلدهم التي ولدوا وعاشوا فيها، ويعمل الزمن عمله بأجسادهم، فيحولها إلى تراب يختلط برمال الصحراء، فلا يبقى لهم أي أثر.

وهذه الطريقة التي اتبعت حينئذ في نقل الأموات لدفنهم في الأرض المهيئة لهم لا تزال متبعة إلى الآن، في هذا الجزء من آسيا، فالشيعة من الفرس يكابدون عناءً كثيرًا في نقل رفات موتاهم من مدينة كربلا لدفنها قريبًا من قبر علي (عليه السلام) وكذلك كثر "المقاولون" لهذا النقل وقد احتكروه احتكارًا.

ولكن الآشوريين والبابليين لم يتقنوا التحنيط كما أتقنه المصريون، ومع ذلك فقد كانوا يعلقون أهمية كبرى على حفظ أجسادهم، فيغطونها بأشرطة مدهونة بالقطران، ثم يقيمون على سفوح التلال التي تخفي القبور نظامًا بديعًا يحول دون تسرب الرطوبة في داخلها.

وهذه الاحتياطات كلها لم تحل دون الانحلال، وإن أفادت في حفظ العظام التي وجد منها شيء كثير في مدافن واركا (Warka)، وهذه البقايا البشرية الثاوية في الظلام من شتى القرون كانت إذا لمستها يد تتفتت وتصبح ترابًا.

ولم تكن أرواح الموتى في بابل ونينوى هي التي تقوم وحدها مقام ملائكة الرحمة والعذاب، بل الجو نفسه كان في اعتقادهم مأهولًا بمخلوقات خفية كثيرة التأثير في نفوس الأحياء فتنشر بينها السعود أو النحوس على قدر ما تستحقه.

وربما كان من الصعب أن نصف أو أن نعدد كل أولئك الشياطين الذين ملأوا فراغ الجاهلية الأولى وتغلغلوا في تصوراتها، فكانوا سببًا مستمرًا لحيرة أهلها وهلعهم، فقد كانوا يصورروهم صورة مختلفة بشعة، واسطوانات الأختام والخواتم،

وألواح الآجر، كلها لا تخلو من هذه الصور الغريبة البشعة المزعجة.

وواحد من هذه الشياطين، وهو شيطان ريح الجنوب الغربي أو ريح "الخمسين" المحرق أو "السموم" في ما بين النهرين له تمثاله في "متحف اللوفر"، وهو قائم على رجليه المنتهيتين بمثل أظافر النسر، أما جسمه النحيل القوي مجسم حيوان، وعلى كتفيه جناحان كبيران، ووجهه بارز العظام دميم المنظر تعلوه جبهة فيها قرنان، ولا يفتر فمه عن إصدار زئير مرعب.

نعم إن البابليين أفرغوا كل ما يمكن تخيله من الوحشية في مثل هذه التماثيل، بحيث تجمع في أجسامها القوية السمجة البشعة ما لا مزيد عليه من قبح في الحيوان والانسان.

ويظهر أن هذه التماثيل كانت كلها ترمز إلى الشر، حتى تدفع الناس إلى اللجوء المستمر إلى التعاويذ والرقي والسحر لاجتذاب رضاها أو لاجتناب سخطها، وقد تفردت كلدة في مسائل التمائم والأحجية والتعاويذ والطلاسم والعرافة فكانت موطن السحر، وكان لكهنتها القدح المعنى في الاشتغال بأمور السيميا (الكيميا الخرافية) والتنجيم والسحر الذي كان رائجا حتى في القرون الوسطى.

ولم يكن الحسد بالعين، والقدر، والاحاطة(١٧) وغير ذلك من أمور التدجيل إلا من مخلفات هذه الشعوب التي كانت تعيش على جانبي نهر الفرات.

ويكفي أن نقرأ تلك العبارات الجنوبية الشاذة التي كان المجوس يتلونها

---

(١٧) Envoutement وهو أنهم كانوا يصنعون تمثالًا بسيطًا يمثلون به من يقصدون ايذاء. ثم على التمثال ما يشتهون وقوعه على عدوهم من الأذي، اعتقادًا منهم أن ذلك يصل إلى جسم ذات العدو. وهذا النوع من السحر ما زال معروفًا في بلاد الشرق وفي بعض جهات أخرى من العالم.

لطرد الأرواح الشريرة، أو نتأمل مليًا تلك الوجوه أو الأشكال التي أفرغها حذاق فنانيهم في أبشع الصور التي تقشعر لها الأبدان أو تقف من هولها الشعور، حتى ندرك ما كانت عليه عقول أهل تلك القرون المظلمة، أو ما كان يجول فيها من تيارات الهوس الديني.

ومن هذه المظاهر المتباينة لا نقدر أن ندرك كيف إن كلدة، وهي مصدر كل هذه الترهات، يمكن أن تكون في ذات الوقت مهدًا للعلم والنور، مالم يكن غرض كهنتها من تمكين هذه الخزعبلات من عقول عامة الشعب إما تأبيد سلطتهم والمحافظة على هيبتهم، أو للتوسل بها، أو التستر وراءها، إلى تحقيق أغراض سامية.

وفي الواقع نجد أن كهنة بابل قد اكتسبوا في الحكمة والعلم شهرة ذاعت في كل أنحاء العالم القديم، حتى أن أشور التي قهرتها بقوة النار والحديد ظلت خاضعة لها أدبيًا، وكذلك كان "آشور بانيبال" المعتز بفتوحاته يرسل رعاياه إلى دور العلم الشهيرة في "أور" (Ur) و "سبارا" (Sippara) وبابل.

ومع أن ديانتا المملكتين امتزجتا حتى صارتا ديانة واحدة في القرون المتأخرة، فقد بقى رغم هذه الوحدة فرق طفيف تتميز به عبادة نينوى من عبادة بابل، فعبادة نينوى كانت أخشن وأقسى من عبادة بابل التي كانت تمتاز بنعومتها وفجورها، ففي آشور كانوا يريقون الدماء على المذابح، ويقدمون الذبائح التي تتناول الضحايا البشرية بطريقة بربرية، أما في بابل فقد كانوا يحاولون كشف القناع عن أسرار الطبيعة والآلهة، ويستسلمون إلى نظريات جريئة، والتضحية الوحيدة التي كانوا يرجون أنها ترضي الآلهة فهي تضحية العفة.

وفي الفصل المتعلق بالأخلاق والعادات، أشرنا إلى الصفحة التي وصف فيها هيرودوتس الأساليب الشهوانية التي كانت تمارس في معبد الإلاهة "ميليتا" (Milita)، فكل إمرأة كان يجب عليها، على الأقل مرة في حياتها، أن تضحي بجمالها تضحية تامة إكرامًا للآلهة ميلينا، وفي ماعدا هذا الإكرام العام، فإن كل هيكل كانت له بغاياه المقدمة المختصات بالمعبود وحده، أو بالأحرى كما يجب أن يفهم، للكهنة بصفتهم نواب عنه، نعم أنه كان يوجد آلهة بابلية مثل "كرشنا" (Krishna) الهندي الذي كان باختياره يتنازل عن هذا الحق، وفي وصف ذلك يقول هيرودوتس:

"إن في آخر برج من النصب الأثرى المكرس "لجوبتر بيلص" (Jupiter Belus) يوجد معبد كبير فيه سرير عليه غطاء جميل، وبقربه مائدة من الذهب، وليس هناك أي تمثال، وما كان لأحد أن يقضي الليل فيه إلا إذا كان امرأة من نساء البلاد، وقع عليها اختيار الاهه، على ما يقوله الكهنة الكلدانيون، ويضيفون إلى ذلك أن الإله يهبط بنفسه ليرتاح على هذا السرير، ولكن يظهر لي أن ذلك بعيد عن التصديق، ومثل هذا كان يحمل في طيبة (Thebea) مصر أيضًا، على رواية المصريين، حيث كانت تنام امرأة كل ليلة في معبد "جوبتر الطيبي"، ولكنهم يؤكدون أن لا هذه ولا تلك كانت تضاجع أحدًا، وكذلك كان الحال في "باتار" (Patare في ليسيا Lycie) لما كان الإله يشرف البلدة بحضوره، فإنهم كانوا يحجزون "الكاهنة العظمى" في المعبد طول الليل للقيام بما يلزمه من الخدمات..."

وفي الديانة الكلدانية الأشورية كان للعنصر النوي القدح المعلى، حتى أننا لا نجد في سواها من الديانات ما كان لها من المعبودات وما كان لمعبوداتها من القوة، ولم يكن الإلاه لينفرد بنفسه، بل كان لكل منهم زوجة تعتبر "نصفه" تمامًا

بأوسع معاني الكلمة، تقاسمه مكانته، وصفاته، وهياكله، ومذابحه، ومجده، وسلطانه.

وكان الامتزاج على أتمه في اتحادهما بدرجة تحمل على الظن أنه لم يكن زواجًا بالمعنى المألوف لنا من هذه اللفظة، بل كان اتحادًا تامًا في شخص واحد كاتحاد الخناثي(١٨)، ويظهر أنه عند الدعاء إليهما لم يعتبر أن لكل منهما شخصية مستقلة، بل كانت صفة الألوهية المجردة من الأنوثة أو الذكورة هي التي تمثل للعابدين كما يتضح من ترجمة الترنيمة التالية:

"إن أنثى النجوم "الزهرة" (Venus)، تكون "نجمة المساء" عند غروب الشمس، والزهرة الذكر تكون "كوكب الصباح" عند شروق الشمس، ونجمة الزهرة عند شروق الشمس يسمى حائزها (زوجها) "ساماس" وكذلك يسمى فرعهما (ابنهما)، ونجمة الزهرة عند شروق الشمس يكون اسمها "الإلهة أجادى"، وعند غروب الشمس "الإله أوروك"، وكوكب الزهرة عند شروق الشمس يكون اسمه بين النجوم "استار"، وعند والغروب يكون اسمه بين الآلهة بيليت (Belit)"

وعلى ذكر الخلط بين الجنسين يجب أن نذكر أيضًا الخلط بين الابن والزوج، كما يتضح من السطر الثالث من الترنيمة السابقة، وهذا الخلط في الأنساب والأسماء والصفات قد زاد في غموض الديانة الآشورية غموضًا وإبهامًا وتعقيدًا، فهذه الديانة الأساطيرية (مثلوغيا)، التي هذبتها العقلية الإغريقية المنطقية لما اقتبستها لنفسها، ظلت دائمًا غامضة على ضفاف نهر الفرات ونهر دجلة، وأقل وضوحًا من الديانة المصرية القديمة التي تشابهها من بعض الوجوه، والتي لم تكن بلا شك إلا فرع من أرومتها، استقل بنفسه من قديم الأزمنة

(١٨) مع كلمة خنثى بمعنى من له عضو الرجال والنساء وصفاتهما معًا.

وترعرع منعزلًا عن أصله.

وهناك نقطة أخيرة يجب أن نقف عندها لأنها كثيرة الشبه بأساس العقائد المصرية القديمة، ألا وهي الثنوية[١٩] الطبيعية، والصراع الأزلي القائم بين الخير والشر، وبين النور والظلام، التي تسود في المعتقدات الكلدانية الآشورية، وهكذا نرى أن تلك الأرواح التي تعمر الجو كانت في حرب مستمر مع بعضها البعض، ولذلك كانت أفضل الطرق عندهم لإيقاع الأذى بالأعداء هي أن يحالف الإنسان شيطانًا أقوى من شيطان عدوه ليقهره ويضطره إلى الهرب، وكثيرًا ما نرى صورة ذلك منقوشة على آثارهم.

وهذا الاعتقاد الأساسي هو الذي ساد وترعرع في أحضان الديانات التي أحيت في ذات البلاد معتقدات كلدة القديمة في صور مختلفة.

والفرس بعقيدتهم "الإثنينية" في عبادتهم الشمس والنار، يظهرون أنهم ورثة هذه العقيدة العتيقة التي عرفوا كيف يغذونها على مدى القرون الطويلة والأجيال العديدة المتعطشة إلى إدراك الحقيقة الأزلية.

فعبادة النار التي كانت تختلط بعبادة الشمس كان لها في الواقع أعظم شأن وأحترام على شواطيء دجلة والفرات، كما يستفاد من هذا النشيد:

"أيها اللهب[٢٠]، السيد السامي، المرتفع في سماء البلدان

"يا "هيروس (Heros)، يابن الأوقيانوس،

أيها اللهب، بشعلتك الزاهية خلقت النور في مثوى الظلام،

---

(١٩) ترجمة Dualisme de la nature .

(٢٠) استعملنا لفظة "اللهب" بدلًا من "النار" القابلة للأصل الافرني لان النار بهذه اللغة مذكرة وبالعربية مؤنثة فاستحسن استعمال "اللهب" لتذكيره، ومعنى الحب في اللغة "لسان النار"، (الناشر).

وقسمت حظوظ كل من تسمى باسم

أنت الذي تمزج النحاس بالقصدير

وأنت الذي تمحص الذهب و الفضة

وأنت الذي في ظلام الليل تلقي الرعب في قلب الشرير.

إن الانسان، ابن إلهه، تشرق أعماله بالطهارة

ويلمع كالسماء

ويكون نقيًا طاهرًا كالأرض

ويتألق في كبد السماء".

ولم تكن "النار" وحدها هي معبودة أهل ما بين النهرين، بل أنهم كانوا يعبدون كل قوى الطبيعة، فالإوقيانوس، والريح، والأنهر، وعلى الأخص الكواكب، كانت كلها مأهوله معبودات الكلدانيين، وهناك قبل أن ترفرف الحضارة على اليونان القديمة "كانت السماء تمشي وتتنفس على الأرض بين جمهور من الآلهة".

وكان سكان ما بين النهرين أكثر الناس تعلقًا بالدين، ولم يكن شعورهم هذا صادرًا عن إيمان أعمي، بل كان شعورًا عميقًا يدفع إليه التأثر بالبؤس والشقاء والخضوع لفكرة الواجبات التي يحتمها تقديس الآلهة، ويمكن إدراك هذا الشعور من الترنيمة التالية التي تضارع أجمل مزامير (داود) اليهود:

"اللهم سكن غضب قلبك الثائر،

وليسعنى حلم الرب الذي أجهله

يا مرزبان[٢١] الغضب، أني أرتوى بمياه الأحزان

وأتغذى بعصيان ربي دون أن أدري

وأسير مخالفًا إلاهي دون أن أعلم

اللهم أن ذنوبي عظيمة، وخطاياي عديدة وجسيمة

أيتها المعبودة التي تعلم الغيب، ما أكثر خطاياى وآثامي

إني أرتكب الإثم ولست أدري

وأصنع الشر ولا أعلم

لقد حمي غيظ الله مني، واستشاط قلبه غضبًا علي

إن الله في سورة غضبه أرهقني

والإلهة في حنقها علي سقتني كأس المر

وهكذا أخر ساجدًا وما من أحد يمد يده نحوي

وأجهر بالدعاء ولا من يسمع

وقد أنهكني الشقاء وليس من يخلصني

وهكذا أقترب من ربي الرحيم وأبث له شكواي

لقد ارتكبت ذنوبًا، فلتهب عليها الريح لتمسحها

"تجاديفي[٢٢] على الدين كثيرة العدد، فمزقها كما يمزق الشر

---

(٢١) ترجمه Mage وهو الرئيس عند الفرس، ببعض تصرف، لأن المقابل الحقيقي هي لفظة " "مجوسي".

(٢٢) جمع كلمة "تجديف".

يا إلهي خطاياي لا تحصي (سبعة في سبعة)[٢٣]، فاغفرها لي

اغفر آثامي، وسدد خطوات من يتقدم إليك خاشعًا

فليرض على قلبك، الذي كقلب الم الرؤوم".

وهكذا فاض هذا التدين الكلداني العميق من خلال العصور كالنهر العظيم فأروي ظمأ قلوب الملايين من بني البشر، وظل ينبوعًا لأسمى المعتقدات وأحسنها، ولتعزيتهم وتشجيعهم على التقدم نحو الهدف الأسمى بلا ملل.

نعم إن ما تطمح إليه نفوسنا الآن، وما عرض لها من المطالب الجديدة، يجعلها في حاجة إلى غذاء جديد أقوى من هذا القديم تتوفر فيه العناصر الضرورية للحياة الجديدة، ولكننا يجب أن لا ننسى فضل أولئك المجوس القدماء، الذين ظلوا يسألون سماءهم الصافية حتى استنزلوا منها إلى أرضنا تلك التخيلات السامية التي سحرت قلوبنا، وإن كانت لم تتمكن بعد من خلب عقولنا.

---

(٢٣) وهذا يذكرنا بما يسمونه عند بعض المسيحين (Les Sept Peches Capitaux) السبع خطايا الكبرى أو الرئيسية.

الباب السابع

فن الإنشاء والعمارة

١ - الميزات العامة لفن الإنشاء والعمارة في عهد الكلدانين والآشوريين :

إن البابليين والاشوريين كانوا من أعظم المشيدين، فإن جمال مدنهم وفخامة أبنيهم اشتهرت بين شعوب العهد القديم، حتى أن الإغريق، وهم الخبيرون في معرض هذا الفن كانوا يذكرون بالإعجاب ما لهم من الآثار، ويقولون أن حدائقهم المعلقة، وأسوار بابل هي من بين عجائب الدنيا السبع.

ومرجع الفضل إلى ستيزياس، وهيرودوتس، وديودورس، وسترابون في بقاء شهرة أرض الجزيرة، من حيث العمارة والإنشاء، حية مدى كل هذه السنين بناء على ما رووه عنها.

وما كان أحد في أوروبا من خمسين سنة يصدق أنه سيأتي يوم تؤيد فيه عيوننا، بطريق المشاهدة، تلك الروايات التي كنا نقرأها ولا نصدقها، أو أن مدن الشرق القديم هذه ستنفض عن عظمها ومجدها رمال الصحراء التي ظلت مدفونة فيها أكثر من ألفي سنة.

فقد جاء اليوم الذي نشر فيه بوتا (Botta) ولايار (Layard) وغيرهما مدينة نينوى التي لم يهتد إلى موقعها كزينوفون (Xenoplion) قبل المسيح بنحو أربعماية سنة، فكشف لنا الباحثون عن قصور مرجون وسنحاريب وآشور

بانيبال، واخترقوا قاعاتها، ومن أوضاعها أماطوا اللثام عن حياة ملوك آشور الخاصة، وعثروا على أخاديد المركبات عند أبواب المدينة، وعلى حلقات الحديد التي كانوا يربطون فيها خيولهم في الإسطبلات، وعلى دور الحريم التي كانت تصب فيه مضاجعهن. وأمكنهم أن يرسموا تخطيط الغرف والمخادع والأيوانات والأفنية، ويحددوا مساحاتها ومسطحاتها، ثم بعد أن استعانوا بما عثروا عليه من الصور البارزة، سهل عليهم أن يستعيدوا في أذهانهم أشكال الواجهات المتهدمة والأروقة المنهارة.



(صورة واجهة قصر سرجون كما تخيلته)



(صورة واجهة قصر سنحارب في نينوي نتصوره)

ومع إن ما اكتشفوه قد ألقى نورًا أضاء تاريخ المدنيات البشرية، ولكن لا

يصح أن نقدر خراب نينوى وبابل كمثيلاتها في طيبة أو تدمر (Palmyra)، ومع ذلك ترى أن السائح يقف أمام تلك الأطلال ذاهلًا مشدها لما يشاهده فيها من دلائل العظمة وآيات الفن، فيذكر إسمي "ثينوس" (Sinus) و "سميراميس" (Semiramis)، وما كان لها من المجد والعظمة على ضفاف نهري دجلة أو الفرات، ولكنه مع كل ذلك لا يشاهد في ما بين النهرين ما يشاهده في وادي النيل من الأعمدة الشامخة والتماثيل التي لا تزال رغم تشويهها تلقى في النفس روعة ومهابة، وكذلك الابراج ذات القواعد الوطيدة، وتماثيل أبي الهول التي لم تستطع القرون أن تعبث بوجوهها الحجرية، وكل هذه تذكر الانسان بضؤلته وسرعة زواله.

وليست هناك إلا طريقة واحدة لاكتشاف تلك المدائن التي كانت فيما مضى سيدة مدن آسيا، ألا وهي التنقيب في الأرض، لأنك لا تجد من آثار بابل وآشور شيئًا قائمًا على سطحها، بل ترى تلالًا هي عبارة عن ركام من الأجر أسفت الرياح عليها رمال الصحراء فأصبحت بمرور الزمن كالتلال الطبيعية، وشيد الفلاح العربي قريته فوق مرتفعاتها لتحميه من وخامة أبخرة المستنقعات التي تكثر في منخفضات السهول، والبعوض الفتاك الذي يتولد في هذه المستنقعات،

والآن لا نرى من كل كلدة التي كانت تتيه دلالًا بفخامة قصورها وهيبة معابدها ومناعة أسوارها وحصونها إلا ركامًا من أنقاض تراكمت عليها الرمال والأتربة.

ولكن معاول بوتا (Bota) ولايار (Layard) أمكنها أن تنبش من تلك التلال ما كان مدفونًا في جوفها من الكنوز، إلا أن ما تم في نينوى، لم يكن قد بدى، مثله في بابل، لأنهم قدروا أنه يلزم لهذا الكشف ما لا يقل عن عشرين

ألف عامل، يشتغلون باستمرار نحو عشر سنوات ليرفعوا ملايين الأمتار المكعبة من الرمال عن أطلال "بيرنمرود" (Birs-Nimroud) فقط ، وأين المال في بلادنا الغربية الآن للإنفاق منه على هذا العمل العظيم بينما ترهقها الضرائب الفادحة لاضطرارها إلى البذل في سبيل ما يسمونه "السلام المسلح"؟.

وهكذا نظن أن بابل ستبقى دائمًا أبدًا ركامًا كما تنبأ لها أشعيا النبي بقوله:

"وتصير بابل سدوم وعمورة، لا تعمر إلى الأبد".

ومن السهل أن ندرك سر انهيار أبنية الآشوريين والبابليين الكلي، وذلك يرجع إلى طبيعة المواد التي استعملت في تشييدها، فلم يكن الحجر داخلًا في هذه المواد لأنهم اقتصروا على الآجر (القرميد) واللبن (الطوب المجف بالهواء وأشعة الشمس).

ولكن إذا كان الكلدانيون قد اضطروا إلى اتباع هذه الطريقة، لأنه لم يكن لديهم في سهولهم الواسعة سوى الطين، فلماذا اتبع الآشوريون نفس الطريقة ومقالع الجرانيت والجص كانت وافرة في الجبال التي تكتنف من الشمال حوضي الدجلة والفرات؟، والجواب على ذلك هو أن التقليد يحتمل أن يكون الدافع لهم على اقتناء أثر أساتذتهم في فن العمارة كما في غيرها، أو اتباع النسق الذي كان شائعًا في كل البلاد.

وقد كانت بابل دائمًا النموذج الذي تحتذي مثاله نينوى، ولم يجرؤ الآشوريون أن يحيدوا عن قواعد الفن التي روعيت في تشييد مبان عظيمة مثل معبد بيل (Bel) والحدائق المعلقة، وكان لاستعمال الطوب دون غيره سبب آخر، على ما نظن، هو توخي الشرعة في التشييد، لأن كل ملك كان يهتم أن يكون له قصر خاص أجمل وأحسن من قصور الذين سبقوه، حتى أن القائمين

بأعمال التنقيب كانوا يجدون تحت كل تل في آشور رفعوا عنه الرمال قصر ملك جديد، فوجدوا قصر سرجون في خورزاباد (Khorsabad) وقصر أشور بانيبال في نينوى.

وبينما كان فراعنة مصر يشرعون في بناء مقابرهم حين يرتقون العرش، ثم يأخذون في تكبيرها وتقويتها سنة بعد سنة لجعلها لائقة بمثواهم الأبدي، كان ملوك الآشوريين يشيدون على وجه السرعة قصورهم لتكون شاهدة على ما كانوا ينعمون به من المجد في حياتهم القصيرة على الأرض، لذلك لم يكن لديهم متسعًا من الوقت لكي يهتموا بحفر المغاور في بطون الجبال، أو جلب الأحجار الضخمة بعد قطعها ونحتها في أقاصي البلاد كما كان يفعل المصريون، بل كانوا يملأون السهول بآلاف العبيد وأسرى الحرب يسخروهم في ضرب الطوب الذي كانوا يصنعونه على عجل من معجون الرمل والطين ليشدوا به أبنيتهم الفخمة المنظر، دون أن يحسبوا حسابًا لخلودها. ولولا أن هذه الأبنية قد طمرتها رمال الصحراء فنظمها من الأنور، لكانت أصبحت أثرًا بعد عين منذ أقدم الأزمان، ولكن هذا هو مصيرها العاجل الآن بعد أن رفع عنها دثارها وتعرضت لتقلبات الطبيعة.

أما لوحات الرسوم البارزة التي نقلناها إلى متاحفنا فإنها محفوظة على قدر الإمكان في المخابي، هناك، والرسوم قد انقذها رسامونا من الزوال، ووصف ما شاهده روادنا مضافًا إلى ما دونه مؤرخو الإغريق سيخلد الكثير من تاريخ هذه البلاد، ولكن مدن ما بين النهرين لا يمكن أن تظهر من تحت التراب إلا لتعود إليه ترابًا، فالهواء الجوي بجفافه ورطوبته، والرياح والأمطار، والشمس وحرارتها، كل هذه العوامل ستعمل عملها الطبيعي في هذه الجدران المشيدة من الطين والصلصال التي حالما ترى النور ستعود إلى عتمة القبور، لتستبدل مملوكة العدم بظلمة النسيان،

أما بقايا هذه المدن التي أصبحت أكوامًا وتلالًا، فقد أخذ الأهالي الحاليون يستعينون بها على بناء مساكنهم وهم لا يخشون نفادها، حتى أن فلاحي الحلة (Hillah) أو بير نمرود (Birs-Nimroud) اخذوا يبنون أكواخهم الحقيرة من طوب و ألواح صلصالية عليها ختم الملك نبوخذ نصر، وهكذا نرى أن الأبنية القديمة القليلة الأهمية قد عفت آثارها بطبيعة الحال بانهيار مدن آسيا، ولولا ما أنطقناه بما انقذناه من الرسوم البارزة والنقوش والكتابات التي حافظنا عليها لما كان في وسعنا أن نصل إلى ما وصلنا إليه من المعلومات، التي لم تزل ناقصة عن حياة أهالي آشور وبابل العادية.

ويظهر أن مساكنهم كانت كثيرة الشبه بالمساكن التي نراها الآن في كل أنحاء الشرق؛ ظاهرها في غاية البساطة، نوافذها قليلة وصغيرة كي تحفظ، على قدر الإمكان، برودة جو المنزل الداخلي من التأثر بالحرارة الخارجية المحرقة، واسطحتها[٢٤] كانت منبسطة، وبعضها مقببة على شكل نصف كرة أو شبه بيضة.

وقد أكد هيرودوتس أن منازل خاصة الشعب كانت تؤلف من ثلاث أو أربع طبقات، ولا يسعنا إلا تصديقه في هذا القول ارتكانًا على ثقتنا بقوة ملاحظته لكل ما وقعت عليه عيناه؛ لان تعدد طبقات المساكن لم يقم على صحته أي دليل باق في أطلال الصروح الهامة سوى في طلل الصرح المسمى "زجورات" (Zigurat) الذي سنصفه فيما بعد، والذي يمكن أن يكون الوحيد في أطلال بابل.

أما الذي أمكن استعادته إلى المخيلة، من آثار آشور وكلدة بأدق مافيه

---

(٢٤) استعملنا هذه الصيغة لجمع سطح البيت بدلًا من لفظة "سطوح" الواردة في المعاجم، لأن هذه اللفظة (سطوح) تستعمل الآن في مصر للمفرد.

من التفاصيل، فهو المعابد والقصور والأسوار، وقد يوجد غيرها كالحدائق المعلقة[٢٥]، وكالقنطرة التي أقامتها سميراميس فوق نهر الفرات، وكل هذه لم تترك أثرًا حقيقيًا بين ماتم اكتشافه حتى الآن، ولا يستبعد أنها كانت موجودة ارتكانًا على ما ذكره كتاب الإغريق، وما ورد في بعض المخطوطات التي أيدتها الاكتشافات الحديثة ولو على وجه التقريب.

نعم إن بعض ما ذكروه يدعو إلى التريث، ولكن الذي لايمكن أن يسلم به بعض العلماء هو تعدد طبقات المساكن، على ما رواه هيرودوتس وأشرنا إليه قبل الآن، وكذلك النفق الذي روى ديودورس الصقلي أن الملكة سميراميس حفرته تحت مجرى نهر الفرات بين قصريها على ضفيه،

وهاك ما قاله هذا المؤرخ عن الحدائق المعلقة التي سبق ذكرها مرارًا:

وكان يوجد في الحصن حديقة معلقة، ليست من صنع سميراميس بل من صنع ملك قبلها، أقامها ليسر بها حظيته، أو بالأحرى ليعوض عليها ما تركته في وطنها الأصلي "فارس" وندمت على تركه من الحدائق الغناء، والمروج الخضراء وهذه الحديقة مربعة الشكل، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعها أربعة "بلثرات (plethres) أي نحو ١٢٠ مترًا، وكانوا يصلون إليها بدرجات، وكانت عبارة عن مسطحات تتدرج في الإرتفاع حتى يتكون من مجموعها ما يشبه المدرج (amphitheatre). أما هذه السطوح، أو بالأحرى المصاطب، فكانت مرفوعة على أعمدة في صفوف متباعدة، تندرج في الارتفاع وتحمل ثقل ما عليها من المزروعات، وكان أطول هذه العمد، ويبلغ ارتفاعه خمسين ذراع، أي

(٢٥) بناها الملك بختنصر لمعشوقته، وكانت حيطانها بسمك سبعة أمتار من الطوب الأخضر، ثم اثني عشر مترًا من الطين وكسيت بالآجر بسمك ٧,٨٠ مترًا، وكانت القمة على ارتفاع ١١١,٣٦مترًا، وقد خط في وسطها طريق بعرض ٢٠ مترًا لمرور المشاة الركبان والمركبات.

نحو خمسة وعشرون مترًا، يحمل أعلى جزء من الحديقة الذي كان في مستوى أعمدة الحصن، وكانت الجدران، المبنية أمتن بناء، يبلغ سمكها اثنين وعشرين قدمًا والمصاطب كانت مبنية من كتل حجرية طول كل منها ست عشرة قدم وعرضها أربع أقدام. وهذه الكتل كانت مغطاة بطبقة من الغاب (أو القصب المعروف في مصر بالحجنة) المشبع بمقدار كبير من الزفت. وعلى هذه الطبقة مدمًا كان من الآجر المحروق مثبتان بملاط (جص). وفوق ذلك غطاء من صفائح الرصاص وطين الإبليز لمنع رشح وتسرب المياه إلى الأساسات، وعلى هذا الغطاء طبقة سميكة من الطين تكفي لكي يغرس فيها أكبر الأشجار، وهذه الحديقة الاصطناعية كانت ملأى بالأشجار والمغروسات من كل نوع يبهر الأنظار ويبهج القلوب. وترتفع الأعمدة تدريجًا، ومن خلالها كان يدخل النور، وكذلك يمرون منها الى المقاصير الملوكية الكثيرة العدد والبديعة الزخارف، وكان واحد من تلك العمد مجوفًا من القاعدة إلى القمة لرفع المياه من النهر بآلات خاصة (هيدروليكية) بغير أن يراها أو يشعر بها أحد".

وقد أفضنا في ذكر كلام ديودورس لأننا، بالرغم عما ظهر من الاكتشافات الحديثة التي عثر عليها المنقبون في أرض الجزيرة، مازلنا نرى أنفسنا مضطرون إلى الاعتماد على أقوال هذا المؤرخ العظيم في ما يختص بأفخم أثر بابلي يتردد ذكره في أرض الجزيرة، وما زال أهالي تلك البلاد يبحثون عن أنقاضه في تل معروف باسم "القصر" حيث يجدون طوبه المبصوم بخاتم الملك نبوخذ نصر، وعلى ذروة هذا التل تنمو شجيرة عبل (tamaris) صغيرة في التراب الذي في أحد الشقوق هناك يريها الأدلاء للسائحين، بكل خشوع واحترام باعتبار أنها آخر نبتة من نباتات تلك الحدائق المعلقة التي تغنى بوصفها ديودورس.

وهنا يحسن بنا أن ننبه إلى الفائدة من ذكر أمثال هذه الاساطير التي تسلك كل سبيل يقف أمامه العلم صامتًا، وذلك لما لها من الأهمية في تاريخ العقل البشري.

غير أنه توجد مسألة في حاجة إلى النظر، تختص بكلمة "عمود" التي وردت مرارًا في شرح ذلك المؤرخ الإغريقي، فرغمًا عن كلام ديودورس الذي يحملنا على الاعتقاد بأن الآشوريين توصلوا إلى استخدام "الاعمدة" لحمل ما يوضع فوقها، فإننا الأن نشك في هذا الأمر، ولا يمكننا أن نؤكد أنهم، كانوا يجهلون فائدة الأعمدة بسبب ظهورها في كثير من نقوشهم البارزة، ولكننا نرجح أنهم كانوا يستعملونها للزينة، لا لحمل السقوف والسقائف، لأنها كانت مدمجة في الحيطان لاتحمل سقفًا ولا ثقلًا.

والذي يمكننا أن نؤكده هو أنهم كانوا أول من بني العقود، وكانت لهم أساليب شتي في إقامتها بحيث تكون شديدة التماسك والصلابة.

ويغلب على الظن ان تلك الحدائق المعلقة كانت ترتكز على قاعدتين أو ثلاث قواعد من هذه العقود، وكانت الجدران التي تفصل بينها تشغل الفراغ الذي بين أكتاف العقود فتلوح للناظر كأنها أعمدة، ولعل ديودورس انخدع بما شاهده، أو سمعه، ولم يتحققه، لأن تلك الحدائق المعلقة الواهية البناء، التي دعت إلى إنشائها أهواء إمرأة فاجرة لم تكن قائمة عندما زار هذا المؤرخ مدينة بابل.

أما ما رواه عن قنطرة الفرات، فإنه بلا شك أقرب إلى الحقيقة مما أطنب في روايته عن تلك الحدائق المعلقة. وهناك ما رواه عن القنطرة:

"ترتكز هذه القنطرة على أعمدة (بغال) غائصة إلى عمق بعيد، ويبعد

بعضها عن بعض نحو اثنتي عشرة قدمًا، وكانت حجارتها مرتبطة بعضها بالبعض بوساطة كلاليب (كانات) غنفارية من الحديد وموثقة بالرصاص المسيح المصبوب بينها، وناحية الأعمدة (البغال) المعرضة لتلقى صدم تبار الماء كانت مبنية على شكل زاوية معكوسة لكي تقاوم التيار وتكسره، فيمتنع الخطر عن بناء القنطرة، وكانت القنطرة مكسوة بألواح من خشب الأرز والسرو، مثبتة على كتل غليظة من جزوع النخل، وكان عرضها ثلاثون قدمًا، ولم تكن أقل من غيرها من منشيات سميراميس حسنًا وجمالًا، وعلى جانبي النهر أنشأت أرصفة فسيحة فخمة، لا تقل عرضًا عن السور، ويبلغ طولها (امتدادها) نحو مائة وستين ستادًا (ثلاثون كيلو مترًا)".

ومع أن اسم "سميراميس" لم يعثر عليه في أي مكان، حتى ولا في بابل أو نينوى، رغم ما كشفته لنا قوالب الطوب من اسماء أقدم الملوك هناك، فإن ما ذكر في السطور السابقة يمكن الجزم باعتباره قريبًا من الحقيقة.

وقد كان نهر الفرات مشغلة ملوك بابل الدائمة، لأن فيضانه المتكرر كان يدعو إلى التنظيم والعناية المستمرة، كما هو الحال بالنسبة لنهر النيل، فإنه كان يجرف في فيضانه كميات من الرمل تسد مجراه فتحول مسيله في بعض الأحيان، لذلك كان في حاجة دائمة إلى التطهير[٢٦] وإقامة الجسور على ضفافه، وتحويل مياهه عند ارتفاع الفيضانات، بواسطة قنوات إلى حيضان واسعة حتى لا يهدد المدينة بخطر الغرق.

وكل هذه الاعمال العظيمة كان يقوم بها قدماء أهل بابل، ولا تزال على الضفة اليسرى آثار هذه الجسور العظيمة التي ذكرها ديودورس، وهنا نعيد ما سبق لنا ذكره وهو أن فن العمارة الكلدانية الآشورية ظهر في أبهى وأروع

---

(٢٦) استعملنا هذه الكلمة المألوفة في مصر بدلًا من "كري او نكش" المعجميتين.

أشكاله في نوعين من الأبنية الأثرية، هما المعابد والقصور التي كانت زينة بابل، فالأبنية الدينية كانت أكثر خامة وروعة في بابل مما كانت في نينوى التي كانت تعنى عناية خاصة بقصور الملوك، تليها عناية ثانوية بيوت العبادة، كأن الإله غير المنظور ترك هناك الفخفخة والزهو للإله المنظور الذي هو الملك ممثله على الأرض.

وربما كان ذلك هو الفرق الوحيد بين كلدة وأشور من حيث فن هندسة المباني، أما شكل الأبنية والمواد المستعملة فواحد في كليهما، كذلك الإلهام الروحي والتقاليد فإنهما متشابهان عند كليهما، ولذا فإننا سنتكلم عليهما (المعابد والقصور) من حيث غايتهما الدينية والمدنية، لا من حيث الإقليم الذي شيدت فيه.

والآن، وقد رفع منقو علماء العاديات في بحر الأربعين سنة الأخيرة الأتربة عن الكثير من الأبنية الأثرية في أرض الجزيرة، فلسنا في حاجة إلى الرجوع إلى كلام الأقدمين، بل سيكون كلامنا مبنيًا على رؤية العين، لاعلى سماع الأذن أو الظن أو الحدس والتخمين.

٢ - الهياكل:

روعي في هياكل الكلدانيين والآشوريين تصميم (رسم) واحد، بناءً على فكرة ثابتة لم تتغير، وقد رأينا مثل هذه الوحدة التامة في هياكل قدماء المصريين، حتى أنه كان يسهل علينا أن نستعيد بناء المثال النظري منها، ولكن هذه الوحدة التي لم يصعب تحقيقها في أرض مصر حيث تيسر إقامة البوابات (البوائك) المتعاقبة، والغرف المرفوعة على الأعمدة، والمسلات المنصوبة أمام الأبواب، ووضع العدد العظيم من تماثيل أبي الهول على جوانب الطرق المؤدية إلى الهياكل، وكذلك تغطية جدران الهياكل بأفخم مشاهد الحياة، لم نعثر على ما يضاهيها في مابين النهرين، لأن نموذج المعابد هناك لا يتجاوز ما يسمونه

"زجورات"[٢٧] (Zigurat) وهو ماشابه على وجه التقريب الأهرام المصرية المدرجة التي كانت مخصصة لدفن الفراعنة.

وأبنية كهذه الجبال الاصطناعية، في سهول بابل المنبسطة، يكون لها في النفس أثر رهيب، خصوصًا لأنهم أسرفوا في تزيينها بمختلف الألوان عند تجصيصها (تبييضها) ونقشها، وبالتماثيل الضخمة التي نصبوها عليها، ومع ذلك نجد أن مخيلتنا لا تتأثر أمامها كما تتأثر عندما تشاهد الردهة ذات السقف المرفوع على أضخم العمد في الكرنك[٢٨].

"فالزجورات" لم يكن في الحقيقة سوى هرم ذي طبقات، اعتادوا أن يجعلوا عددها سبع، ترتفع غالبًا إلى علو شاهق.

وقد غالى مؤرخو الإغريق وشطوا كثيرًا في وصف تلك الزجورات، لأن المكتشفات الحديثة دلتنا على أن بعضها لم يتجاوز ثلاث أو أربع طبقات، ومنها قصر "خورسباد" الذي أطلقوا عليه اسم "المرصد" ؛ نظرًا للغرض العلمي الملازم للغرض الديني الذي أنشأوه من أجله.

وبما أن ارتفاع أعلى الأدوار لا يزيد على عشرة أمتار، فلو فرضنا أن كل "زجورات" يتألف من سبعة أدوار، مضافًا إليها سمك الأساسات والقاعدة الأرضية مع ارتفاع المعبد العلوي، نجد أن ارتفاعه الكلي لا يمكن أن يكون أكثر من تسعين أو مائة متر.

والزجورات، كبقية آثار ما بين النهرين وقصورها، ترتكز على قاعدة متسعة من الآجر بحيث تقع في وسطها، ولكن أحيانًا تكون منحرفة نحو جهة

---

(٢٧) وربما كانوا يعود على قمة عرش آلهة القمر، ويوجد في العراق بلدة أثرية اسمها شرقاط تقع بين الموصل وبغداد، انظر الصورة صفحة ١٧.

(٢٨) بجوار مدينة الأقصر في صعيد مصر.

من جهات هذه القاعدة، ويصل الصاعد إلى القمة بواسطة مرقي حلزوني له إفريز مسنن جميل يعطي رونقًا لبساطة البناء.

وكذلك توجد أيضًا بعض زجورات (أهرامات مدرجة) لها سلم مزدوج، ولكن هذا الطراز مع أنه أكثر زخرفًا وجمالًا فهو استثنائي نادر.

وكانت كل طبقة من طبقات الزجورات السبع تدهن بلون خاص يختلف عن غيره، ويرمز إلى إحدى الكواكب السيارة السبعة، كأن الغرض من السبعة ألوان والسبع طبقات هو تذكير الرائي بالسبعة الكواكب السيارة (المتحيرة).

فالدور الأول كان أبيض مدهونًا بالكلس (الجير)، والثاني أسود بالقبر (زفت معدني)، أما الثالث والرابع والخامس فإنهم كانوا يشيدونهم بطوب مختلف الألوان أو متحجر بالحرق حيث يكون له اللون الأحمر والأزرق والبرتقالي، أما الدور السادس فكان فضيًا والسابع ذهبيًا، وكذلك المصلي الذي في القمة فإنه مكسو بصفائح الذهب، والقبة التي تعلوه كانت تتألق من بعيد فيخيل للناظر إليها أنها كوكب دري ساحر، وأحيانًا تطلى التماثيل الضخمة المقامة على طرف آخر قاعدة بدهان ذهبي على مثال المعبد.

وطبيعي أن كل من يرى مثل هذا الأثر الفخم بألوانه الزاهية الخلابة، وآلهته المتلألئة عند قمته، وزخارفه المنسجمة، لابد وأنه كان يؤخذ بهذا المنظر، ولذا نرى عذرًا لمؤرخي الإغريق على تحمسهم وشططهم عند وصفهم له.

ولكن هذه الكتل الضخمة خلت من دقة الهندسة الداخلية التي نراها في الأهرام المصرية التي تشبهها من الخارج، حتى أن المنقبين الأثريين لم يستطيعوا أن يعثروا على غرفة واحدة في جوف خرائبها التي وجدوها عبارة عن أكوام من التراب والطوب.

وعلى طول طريق المرقى الحلزوني، وعلى مسافات قصيرة، كان يوجد إما مصلى أو محراب (استراحة) لأجل راحة المتعبدين في صعودهم الشاق إلى القمة.

وفي واقع الأمر نجد أن الغرض الحقيقي من تشييد هذه الأطواد السامقة لم يكن لأجل إقامة الشعائر الدينية أو لتقديم فروض العبادة للآلهة، بل كانت عبارة عن مراصد فلكية مريحة للقساوسة العلماء فيها يقيمون لدرس السموات ورصد الأفلاك، لأن علم النجوم[٢٩] كان مرتبطًا بالدين في كلدة.

ولما انتقلت عبادة البابليين إلى الآشوريين، وكانوا حربيين أكثر مما كانوا علماء، تضاءل حجم الزجورات لعدم اهتمامهم بها، فلم يعد يرى في نينوى معبد غير مرتبط بقصر، فالبرج ذو الطبقات الذي قل ارتفاعه وانحط رونقه عما كان عليه في كلدة أصبح من ملحقات مساكن الملوك.

أما الفلكيون فإنهم هاجروا باستمرار إلى كلدة السفلى وقصدوا دور العلم هناك للدرس والتحصيل والرصد في مدينة بابل القديمة، أم العلم.

وهكذا لم يبق من أثر لأفخم وأعلى هذه الزجورات، إلا وهو معبد بيلوس[٣٠] (Belus) الشهير، سوى أطلال معروفة الآن باسم بير نمرود، لا تزال عليها مسحة من الجمال والروعة والجلال.

وهذا البناء الأثري لا يزال يرى في السهل المنبسط على يمين نهر الفرات، وهو من بعيد عبارة عن تل تعلوه ركام بناء منهدم، وكأنه في مجموعه يتسلط على هذا السهيل الفسيح من ارتفاع لا يقل عن واحد وسبعين مترًا، ليذكر من

---

(٢٩) لعله يقصد علم الفلك (أو الهيئة)، لا علم التنجيم.

(٣٠) ابو نينوس (Nints) الآشوري الذي أسس مدينة نينوى قبل ميلاد المسيح بألفي سنة كما ورد في الأساطير.

يراه بمصير كل كائن على وجه البسيطة.

ومتى غادر المره قرية الحلة الصغيرة الآن لقلة سكانها ومساكنها، وتركها جالسة فوق هامة مدينة بابل العظيمة التي طأطأت لها رأس أعظم ممالك العالم في إبان عظمتها وسؤددها، ثم اتجه بنظره إلى خرائب بير نمرود الكئيبة، ازداد تأثرًا كلما اقترب منها، خصوصًا عندما يصلها ويجول بين روابي خرائبها، و يرى ذئابًا هزيلة تنهض مذعورة وتختفي هربًا من صوت وقع أقدام الإنسان، فيذكر، وهو يطأ بقدميه ترابها الصامت، ما كان لهذه المدينة، التي كانت ملكة أسيا، من العظمة والسؤدد والهيبة والمجد؛ ثم يذكر كلام النبي أشعيا في الإصحاح الثالث عشر، من العدد الرابع عشر:

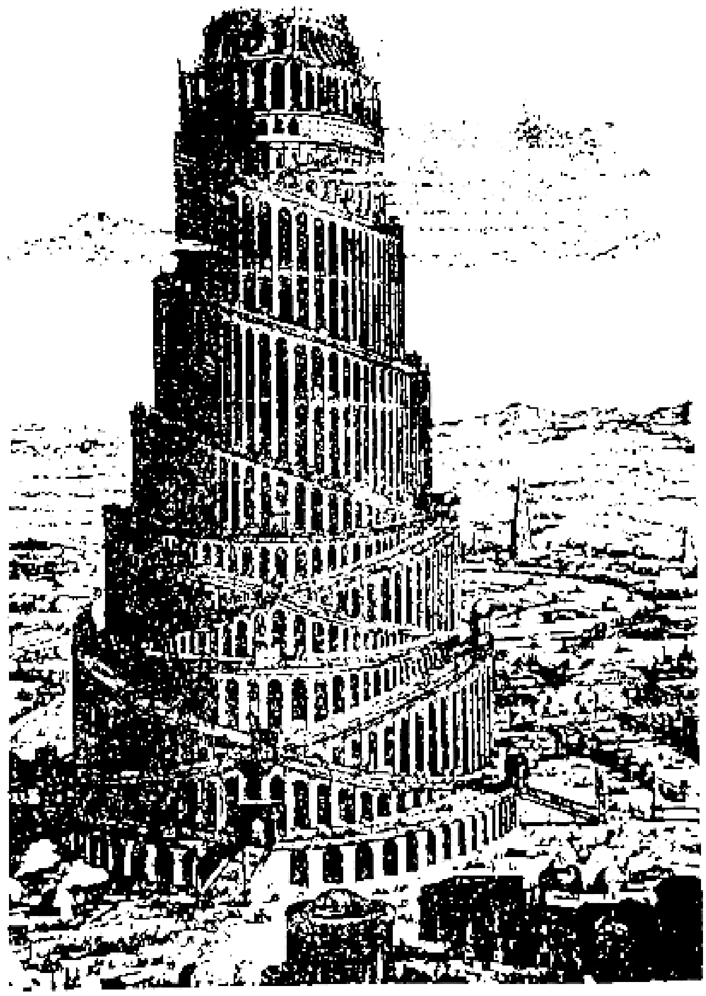
"ويكونون كظبي طريد وكغنم بلا من بجمعها... ونصير بابل، بهاء الممالك وزينة في الكلدانيين، كتقليب الله سدوم وعمورة... لا تعمر إلى الأبد، ولا تسكن إلى دور فدور، بل تربض هناك وحوش القفر، ويملأ البوم بيوتهم، وتسكن هناك بنات النعام، وترقص هناك من الوحوش، وتصبح بنات آوى في قصورهم والذئاب في هياكل التنعم....".

٣- القصور والحصون :

كان تشيد القصور وتحصين المدن من أعظم أعمال هندسة المباني الكلدانية الآشورية، حتى أن أسوار بابل كانت تعد إحدى عجائب الدنيا السبع.

ولقد رآها هيرودوتس ووصفها وصفًا شاملًا، فذكر ما كان لها من الاتساع والارتفاع والسمك، والخندق المحيط بها، والأبراج الضخمة التي كانت تعلوها على مسافات متقاربة، وأبوابها النحاسية التي بلغ عددها مئة.

وهنا لسنا نرى سبيلًا إلى اتهام المؤرخ الإغريقي بالمغالاة والشطط في الوصف، فإن ما عثر عليه المنقبون الأثريون بعد رفع الأتربة عن هذه الأسوار كشف لنا عما هو فوق وصفه بمراحل، حتى أن هيرودوتس وديودورس حين ذكرا الأسوار التي كانت تسير عليها عدة مركبات بعضها إلى جانب بعض لم يذكرا الحقيقة بأكملها، كأنما كانا يخشيان أن يتهما بالغلو.



(صورة تخلية برج بابل)

ولا أدل على ذلك من نفس أسوار خورزاباد التي أمكن قياسها، فإن سمكها كان لا يقل عن أربعة وعشرين مترًا، وكانت الأبنية عند الأبواب تمتد إلى مسافة لا تقل عن سبعة وستين مترًا نحو الداخل، فالارتفاع لابد وأنه كان يتناسب مع ذلك، وقد قدره ديودورس، مستعينًا بتقدير ستيزياس (Stesias) لأسوار بابل، بتسعين متر، وهذا التقدير لا يدهشنا مطلقًا، لإن قياس الارتفاع من قاع الخندق إلى أعلى شرفة السور، لا يمكن أن يكون أقل من ذلك، وقد وجدنا، حتى في أبنية القصور الداخلية، جدرانًا يبلغ سمكها ثمانية أمتار.

وهذه الأحجام الضخمة، التي ألقت في روع سياح الإغريق أن العمارة الآشورية كانت فنًا راقيًا إن دلت على شيء من الوجهة المعمارية، فإنها لا تدل إلا على أن فن إنشاء المباني كان عند الآشوريين في بدايته وعلى الفطرة، لأن التمادي في سمك وارتفاع الجدران هما من الوسائل الساذجة البدائية التي يلجأ إليها لحماية مكان ما، لأنها لا تحتاج إلى مهارة هندسية أو عبقرية علمية، بل كل ما يلزمها هو الكثرة في عدد الأيدي العاملة، واليسرة في تدبير مواد البناء وأهمها الطوب الذي يخبرنا هيرودوتس أنهم كانوا يجبلون طينه من تراب الخنادق التي كانوا يحفرونها حول المدن.

ولا شك أنه كان يسهل على بابل أو نينوى احتمال الحصار الطويل وهي محمية مثل هذه الأسوار والخنادق كما رواه المؤرخون، فقد كانت آلات الهدم بأنواعها المعروفة وقتئذ كالمجنيق والدبابة والمنسف وغيرها لا تؤثر في مثل هذه الأسوار الضخمة.

وكذلك إتساع قمة الأسوار، وكثرة عدد الأبراج كان يسهل حشد جيش عظيم لرد حملات الهاجمين من السهل.

أما المجاعة التي كان يمكن أن تسبب عن طول زمن الحصار، فهذه قد

عرفوا كيف يمكن تفاديها، وذلك بالتوسع في مساحات الأراضي التي كانوا يخططون عليها مدنهم لكي يتمكنوا من ترك[٣١] الكثير من الأراضي خالية من الأبنية بين المساكن، حتى إذا اضطرتهم الحاجة إلى طعام زرعوها واستعانوا بما تنتجه لهم على دفع غائلتها خصوصًا في أوقات الحصار.

وإذا أخذنا بصحة هذه الفكرة، وصدقنا أقوال قدماء المؤرخين، كان مسطح أرض بابل يجب أن يكون معادلًا لسبعة أمثال مساحة مدينة باريس، أو مايقرب من مساحة كل إقليم السين (La Seine) في فرنسا تقريبًا، وهكذا كان الخطر الوحيد الذي يهدد هذه العواصم الفسيحة في زمن الحصار ماثلًا في النهر الذي كان يخترقها، وكانت تتوقف على مياهه حياة سكانها، وذلك لأن الفتحات التي كان النهر يجتاز تلك الأسوار من خلالها كانت من أكبر أسباب الضعف والخطر على هذه المدن، لأن مياه الفيضانات كانت تنخر الطوب الضخم المبنية به هذه الأسوار وتعرضها للتفكك والبلاء.

وقد جاء في وحي على نينوى (في التوراة) بينما كانت تعاني أحد حصاراتها[٣٢]، إن "هذه المدينة لا يمكن أن تؤخذ بهجوم أعدائها، ما لم يجاهر النهر نفسه بعدائه لها".

وهكذا تحققت هذه النبوءة بنهاية هذا الحصار الذي تمكنت من مقاومته بلا عناء بدفاع استمر أكثر من سنتين كان الحظ حليفها فيهما، ولكن حدث في السنة الثالثة للحصار أن هطلت أمطار غزيرة، ففاض نهر الدجلة، وغمرت مياه فيضانه قسمًا من المدينة، فانهار جزء من سورها كان اتساعه كافيًا لتدفق جيوش

---

(٣١) محو تسعة أعشار مساحة أرض المدينة كانت تترك المتنزهات والحدائق، والحقول.

(٣٢) راجع هذا الكتاب في الكلام عن الملك ساردنابال الأساطيري، وقد ذكر الاسم "سارونابال" له بالواو بدل الدال خطأً.

العدو المحاصر إليها.

وحدث كذلك بينما كان الملك بلشاصر منغمًا في قصوفه وفجوره، مطمئنًا إلى مناعة أسواره، إن عدوه كورش (Cyrus) تمكن من تحويل جانبًا من مجرى نهر الفرات(٣٣)، ودخل مدينة بابل بجيوشه الجرارة من الفتحة التي كانت المياه تمر منها، سائرًا في عقيق النهر الذي كان قد جف، وهكذا قضى على ملك الكلدانيين.

وإلى الآن لم نتكلم إلا عن ضخامة الأبنية الأشورية، ولذلك بقي علينا أن تذكر ما نعلمه عن محاسنها الخاصة، ولكننا لن نجد في فن العمارة الأشورية ما يقتضيه سمو الفن من التنويع والتغيير في الأشكال الذي يستمده هذا الفن من موارده الخاصة، لأن العمود المنعزل، وكذلك تآلف واندماج الخطوط المستقيمة والخطوط المنحنية، وخفة البناء في مواضع إزاء ضخامته في مواضع أخرى، كل ذلك كان مجهولًا أو مهمًا في آشور، فكل أبنيتهم أو أجزاء منها كانت عبارة عن متوازيات الأضلاع المتقابلة، وخطوطها واقفة جاسئة، وزواياها قائمة.

ولأجل زخرفة منشآتهم كانوا يستعينون بفنون غير فن العمارة، كفن النحت، أو بالتحلية بالطوب أو البلاط الملبس بالميناء (ولعله يقصد القيشاني أو ما يشبه) وهكذا كانوا يلجأون إلى التماثيل الضخمة، والنقوش البارزة، أو الزخارف المتعددة الألوان لتغطية الحيطان، وغير ذلك مما جعل الأبنية الآشورية رونقًا فخماً بهر عيون الإغريق الذين رأوها في إبان مجدها، وأدهش عقول

(٣٣) هو أطول وأكبر وأهم نهر في آسيا الغربية، وله منبتان في جبال أرمينية، أحدهما الجنوبي واسمه مرادشاي يسير مستقلًا نحو ٢٧٠ ميلًا حتى يلتقي بنهر "فرات" (Frat) عند بلدة كسان مادن فيتكون من مجموعهما نهر الفرات (Euphrate) الذي يمير جنوبًا حتى يتلاقى ونهر دجلة (Tigris) قبلما يصلا إلى الخليج الفارسي بنحو ستين ميلًا، ويسمى الجزء الأخير المؤلف من مجموعهما "شط العرب".

المنقبين المصريين عندما رأوا خرائب قصورها ومعابدها في أطلال نينوي وخورزاباد.

أما أبواب المدن فإنها تعد بحق من أبدع الآثار التي تركها الآشوريون، وذلك لما كانوا يبذلونه من العناية والمهارة في صنعها وزخرفتها، وقد كانت على شكلين ولغرضين، فمنها ما كان معدًا لمرور المشاة، ومنها ما كان لدخول الركبان والفرسان، أو لأجل مرور مركبات الحرب، أو عربات الفلاحين، وهذه الأخيرة كانت في غاية البساطة لأنها كانت معرضة أكثر من غيرها للصدمات، على عكس أبواب المشاة التي كانت آية في الزينة والجمال، وكانت الأبراج ذات الشرفات المسننة تحميها من كل جانب، وعند مداخلها ترى تماثيل ثيران فخمة يبلغ ارتفاعها من خمسة إلى ستة أمتار، وهي من تحف فن النحت الأشوري، أما الجزء الأعلى من الباب فكان على شكل عقد له "شمبران" من القيشاني، أو الطوب الملون بألوان زاهية ورسوم فاتنة.

وعلى طول الممر الداخلي العريض صفين من التماثيل التي تشبه تلك التي في متحف اللوفر (بفرنسا)، وهى تصور جبارة يخنق أسدًا تحت ساعده(٣٤) الأيسر، وهي واقفة كأنها من حراس مدخل المدينة أو رمز عظمتها.

وعلى جانبي الممر شيدت أبنية تحوي غرفًا لإقامة الحراس، أو لتكون كمأوى يلجأ إليه عابر السبيل للتخلص من حرارة الجو خلف جدرانه السميكة الضخمة.

وكانت بوابات المدن والمباني العظيمة بمثابة "الساحات العمومية" عند اليونان (Agora) أو الرومان (Forum) حيث كان يجتمع الناس ليتباحثوا في

---

(٣٤) انظر الصورة رقم ١٣.

الشؤون العامة أو لتبادل الآراء والفوائد العامة، أو لسماع الاخبار، أو للتجارة، أو مكانًا التقاضي.

وقد رأينا في التوراة أن القضاة قديمًا كانوا يجلسون للحكم عند أبواب المدن، وكان مردخاي (Mardochee) دائمًا يجلس عند باب القصر، وبوعز (Booz) يجمع أقاربه عند باب المدينة، ومن هذا الاستعمال جاء اسم الباب العالي (Sublime Porte) الذي استعمل أولًا لمدخل السراي القديمة في الأستانة (القسطنطينية)، ثم أطلق فيما بعد على المجلس الذي كان ينعقد فيها، ثم أخيرًا على الحكومة التركية نفسها.

ويجب أن نتذكر هذه العادات لنلم بما كانت عليه أهمية تلك البوابات الاثرية التي نجد بقاياها عند مداخل مدن آشور.

وقد كانت قصور ما بين النهرين عبارة عن مدن محصنة قائمة بذاتها في أحضان المدينة الشعبية وكانت جدران هذه القصور وأبوابها مبنية على طراز، وسمك، ومستوى ما يماثلها من المدينة الأصلية.

وكان ظهر القصر الملكي يستند دائما الى ناحية من سور المدينة، وله منفذ سري إلى ما وراء السور من الحقول أو الخلاء، بحيث يمكن للملك وأعوانه أن يهربوا منه، أو يستعملونه لجلب المؤن أو المعونة من الخارج، كلما حدثت ثورة في الداخل، وهكذا كان طغاة ملوك الشرق الأقدمين يستعملون ضد رعاياهم ذات أساليب الدفاع التي كانوا يستعملونها ضد عدوهم الخارجي، وكانت المسالك السرية، وسمك الجدران، والثكنات، متشابهة ولكنها مستقلة بعضها عن بعض.

واعتاد ملوك آسيا أن يعيشوا في خفاء تام، حتى أن نساءهم ما كانت

دائمًا تعرف وجوههم، وكانت كل امرأة من نساء الملك لا تختلط بغيرها من نسائه؛ لأنهن كن يعشن في جهات منفصلة من بيت الحريم الذي كان عادة عبارة عن بناء منفصل عن القصر.

ولو رجعنا إلى النسق الذي كان مرعيًا في هندسة قصور الملوك في آشور لتحققنا أن سرجون وسنحاريب وآشور بانيبال كانوا يتبعون تلك الأنظمة والعادات، وكذلك غيرهم من عتاة آسيا الموسوسون، على ما رواه هيرودوتس في قصة سمرديس(٣٥) المجوسي:

" ذلك أن سيدًا فارسًا اسمه أوتان، كانت له ابنة اسمها فيديم، زوجة السيد سمرديس المجوسي، سألها والدها مرة عما إذا كانت حياتها رغدة وهنيئة مع زوجها "ابن كورش" فأجابته فيديم "إنها لم تر قط وجه هذا الرجل الذي قبلها في عداد نسائه". فقال لها والدها أوتان "إذا كنت لا تعرفين سمرديس (زوجك) فسلي عنه رفيقتك الاميرة "أتوسا"، فأجابته قائلة، "ليس في استطاعتي أن أحادث أتوسا، ولا أن أرى أي امرأة من النساء الأخريات".

ولما أرادت مرة أن تتحقق مما إذا كان زوجها أصلم الأذنين، اضطرت إلى المجازفة بحياتها إذ اجترأت وأمرت يدها على رأسه بينما كان راقدًا إلى جانبها في ظلام الليل مستغرقًا في نومه.

وبما أن قصور الآشوريين لم تكن تبنى إلا من طابق واحد، فكانت بطبيعة الحال تشغل مساحة واسعة جدًا، فأطلال قصر سرجون في خورزاباد تدل على أن عدد الغرف كان أكثر من مائتين، عدا العدد الوافر من الأفنية والقاعات والرداه (جمع ردهة) الفسيحة، وأنا لا أعرف مبنى أثري في كل العالم يشغل

(٣٥) ويدعي أيضًا برديه (Bardiya) ثاني أولاد كورش الذي ذبحه أخوه قمبيز.

مساحة من الأرض تعادل مساحة هذا القصر سوى هيكل أمون (Amnon) في طيبة (المصرية)، ومعبد سر برجام (Pagode de Sriringam) في جنوب الهند.

وكانت القصور (الملكية طبعًا)، يتألف كل منها من ثلاثة مجاميع من الأبنية، أولها "السراي" وهي عبارة عن غرف (جناح) الملك الخاصة وقاعات الاستقبال والتشريفات، وثانيهما "الحريم" حيث توجد مخادع زوجات ونساء الملك، وثالثها "الخان" وفيه حجر ضباط القصر، ومرافق القصر، المخازن والمطابخ والاسطبلات (مرابط الخيل).

وهذه الأبنية المختلفة كانت مؤلفة من غرف مستطيلة تحيط بأفنية لها ذات الشكل، وكانت قاعاتها الكبيرة جدًا، تلوح لطولها كأنها ضيقة كالدهاليز، وربما كان السبب في ذلك أن الآشوريين لم يستعملوا في أبنيهم غير الخشب والآجر، ولأنهم كانوا يجهلون كيفية الانتفاع بالعمد لرفع السقوف.

وفعلًا لم يعثر المنقبون في كل ما كشفوا عنه من الأرض المفروشة بالطوب في هذه الخرائب على أثر يدل على مكان كان يقف فيه عمود واحد، وكل ما وجدوه فيها كلها هو بدن عمود، غير أننا نعلم أن من جملة الأشكال التي كانوا يستعملونها لزخرفة قصورهم هي أشكال أعمدة بتيجانها وقواعدها مرتكزة أحيانًا على تماثيل أسود، ولكن هذه الأعمدة كانت دائمًا مستندة إلى الجدران ولم يكن لها أية فائدة عملية سوى الزينة، نعم إن بعض الرسوم البارزة تحملنا على الاعتقاد بأن هذه العمد كانت أحيانًا تحمل سقوفًا أو حدائق، ولكن الذي يبدو لنا هو أن النقاشين الآشوريين الذين صوروا هذه الرسوم كانوا قد توسعوا بخيالهم حتى سبقوا مهندسيهم المعماريين الذين لم يكونوا قد توصلوا بعد إلى صنع الأصل.

وقد وجدوا في داخل أسوار كل القصور المملكة الآشورية بقايا هرم

آشوري مدرج (un zigurat)، وهذا يؤيد ما سبق ذكره وهو أن المعبد الكلداني آل الأمر به في ما بين النهرين العليا إلى أن صار أحد مرافق المسكن الملكي.

ثم أنه يندر وجود مثيل للزخارف التي كانت تزين تلك القصور، وسنفيض في وصفها عند الكلام على فن النحت والزخرفة، وما كان يكسو الحيطان من الرسوم الناتئة وأفاريزها المصنوعة من الخزف أو القيشاني بألوانه الزاهية التي تبهر الأنظار، والمناظر الكاملة المصورة عليه أو على الطوب الخزفي، وكذلك فن توفيق (توليف) الألوان وانسجامها الذي كان فيه سر جمال هذه الحليات المعمارية، وقد عثروا بين هذه الزخارف على صور أشخاص ملونة مما يعزز رواية ديودورس الآتية:

"وكانوا يصورون على الأبراج والأسوار كل أجناس الحيوانات، ناتئة وملونة، بغاية الاتقان، فمن هذه الرسوم صورة صيد وقنص تشمل أجناسة عديدة من حيوانات برية لا يقل ارتفاعها عن أربعة أذرع، وكانت سميراميس ممثلة في هذا الصيد ممتطية فرسها وهي تطعن برمحها نمرًا أرقطًا (عسبر)، وبالقرب منها زوجها نينوس بصرع أسدًا بضربه بالحربة".

* * *

ولكي نلم بجملة ما كانت عليه قصور الآشوريين يجب أن نرجع إلى الوصف الذي أورده عنها "المسيو بلاس" القنصل الفرنسي الذي عقب "بوتا" في رفع الأتربة عن قصر سرجون العظيم في خورساباد، حيث قال:

"إذا نظرنا إلى النقوش والرسوم البارزة في قصر نينوي من حيث مجموعها لاحت لنا كأنها قصيدة من الشعر الحماسي تشيد بمجد منشئه، فهو البطل الأوحد الذي تدور حول شخصه كل فصول الرواية ووقائعها، وأسوة بالقصائد

المكتوبة ترى هذه الرسوم تبدأ بالصلاة والسلام، ثم بالتوسل إلى الأرواح العلوية الممثلة في صور مقدسة على الأعتاب، وبعد الفراغ من التغزل بأبطال آشور وحماتها وتمجيدهم، تدخل في صلب القصة، التي يستغرق سردها رسومًا كثيرة، وهذه القصص طلية تثير العواطف، وكان أهالي نينوى يسرحون ويتلذذون بهذه الذكريات التي كانت توافق كرامة الأمراء وروح الشعب الحربية، وكانت أطول واجهات القصر، وكذلك الأفنية والدهاليز، وهي أول ما تقع عليه عين السائح، فياضة بذكر الأبهة الملكية، وكانت احتفالاتهم تبلغ منتهى العظمة، فترى فيها مواكب الأسرى الذميين، الذين يدفعون الجزية، يمرون أمام الملك وهو جالس بين عظمائه وحاشيته تلوح عليه سيما الكبرياء والصلف والازدراء، والشعب يمر أمامه، بلا تزاحم أو تدافع بالمناكب، وعلى وجوههم جميعًا إمارات الاعتزاز بالنفس والكرامة اللائقة بالتشريفات الملكية، أما في الغرف الأصغر حجمًا، والأبعد للداخل، وعلى مقياس أصغر للرسم، فقد كان الفنانون أكثر حرة في التفنن بتصوير أساليب السير، والمواقع الحربية، وتسلق الجبال، وإقامة الجسور، وعبور الأنهر بكيفية واضحة، فهنا ترى رسوم الملاحم، واختلاط الجنود المتحاربة جسمها الجسم، وهنالك ترى الجنود، المدرعة تتراشق بالقوس والسهم، وتتلقى السهام والنبال، التي تملأ الفضاء، بالتروس أو الدرق، وهنالك ترى الجرحى وجثث القتلى تغطى الأرض بكثرتها، أو ملقاة في مياه النهر، أو منبطحة تحت دواليب المركبات، أو مبقورة البطون والنسور تنهش أحشاءها، وكان الملك يشترك بنفسه في المعارك تارة، راجلًا (على رجليه) وطورًا فارسًا (على ظهر فرس)، وأحيانًا على مركبته الحربية تجرها الجياد المطهمة، وأحيانًا ترى صورة معبود في قرص مجنح، أو عقابًا محلقًا فوق رأس الملك وكأنه يناصر الآشوريين.

ثم يبدأ الهجوم فترى آلات الحرب تضرب الأسوار، وواضعي الألغام ينقبون الجدران، والمحاصرين يدافعون بقذف الحجارة أو السوائل المحرقة، أو المشاعل الملتهبة وغيرها، وأخيرًا عندما تنفد وسائلهم وتضيق بهم وجوه الحيلة يرفعون أذرعتهم نحو السماء كأنهم يلتمسون الرأفة من المنتصرين غلاظ القلوب، ثم ترى المحاصرين محملين بالأسلاب والغنائم، يسوقون أمامهم جماعات الأسرى التعساء وقد اختلط الرجال بالنساء اللواتي يقدن أطفالهن أو يحملنهم على أكتافهن، اختلاط الحابل بالنابل، ووراءهم مواشيهم وهم سائرون إلى منفاه حيثما ينتظرهم العمل المرهق في تشييد بناء تذكاري لتخليد ذكر هذا النصر المبين.

ثم نرى الملك بنفسه يسيطر على بناء القصر، فنراه يأمر، وجنوده بعصيهم المرفوعة تنفذ الأوامر وتراقب جماهير العبيد (الأسرى) وهم يعجنون الطين، ويضربون منه الطوب، ويحملونه على أكتافهم، ثم يقيمون من التراب، سطحة مائلًا يدحرجون عليه الأحجار الضخمة بكل عناء ومشقة بواسطة صفوف من العمال طويلة جدًا، ثم تلي هذه الرسوم رسوم حروب أخرى وانتصارات جديدة، وكأنّ المصور لا يسأم ولا يمل تكرار هذه الرسوم وأمامه في كل مرة مادة جديدة يستنبط منها لفنه ما يحلو له من الحقائق المدهشة، ثم يعقب ذلك منظر يمثل انتقام لا يعرف الرحمة، وفيه ترى أنهم كانوا يعمدون إلى سلخ الأسرى وهم أحياء، أو شطر أجسادهم بالمنشار، أو خوزقهم بالخازوق ليموتوا عليه، أو أنهم كانوا يصلبونهم، أو يجزون رؤوسهم في حضرة الملك، بينما يقف كاتب لا يظهر عليه أدنى تأثر بهذه المناظر المرعبة، لكي يدون على ورق البردي حساب الرؤوس التي تقطع، وأخيرًا نرى صورة الفصل الأخير من هذه المأساة التي تقشعر من فظاعتها الأبدان، إذ ترى فيها الملك وهو يفقأ بأصابع يديه عيني أسير يقودونه إليه بحبل مربوط في خزامة (حلقة يشدو فيها الزمام) مخزومة

في شفتيه، وقد كان هؤلاء الرواة المصورين أمناء جدًا في نقل ما يصورونه من وصف تلك الفظائع البربرية، فلم يحاولوا أن يلطفوا شيئًا من شدة وقعها في النفس، وذلك لكي يقدموا للمطلع صورة صحيحة من المشاهد الوحشية التي كان لا يستهجنها الأشوريون، والتي جاء وصفها في مواضع كثيرة من التوراة شاهدًا على صحتها.

ويجيء في المرتبة الأولى، بعد صور البطولة الشنيعة التي رأيناها توًّا صور الصيد والقنص، لأن الملوك الآشوريين، الجديرون بأن يعدوا بحق أبناء نمرود، كان لهم ولع شديد هذه الرياضة العنيفة، التي هي عبارة عن حرب حقيقية مصغرة، فترى في أطلال قويندجيك (koyoumdjik) صورة الملك وهو يطارد الوعل والغزال، وخاصة الأسد الذي تدل كثرة رسوم صيده أنه كان الطريدة المفضلة.

وكان الملك يطارد هذه الحيوانات وهو في مركبة أو على صهوة جواد أو على قدميه، وسلاحه الحربة أو النبلة أو القوس والنشاب التي كان يجيد استعمالها، وأحيانًا نراه والخنجر في يده يتلهى بطعن أعداءه البشعين لكي يقهرهم.

وأخيرًا، وبعد أن يكون قد مل التقتيل والتعذيب، يأخذ في التقرب إلى الله بتقديم باكورة صيده، ثم نراه في أقاصي بيت الحريم مضطجعًا على فراش وثير وأمامه مائدة مثقلة بأطايب المأكولات، وتجاهه نرى الملكة تشاركه في مسرات الولمية، وبين أيديهم القينان[٣٦] يساوقن[٣٧] غناءهن بأنغام القيثارة، وهي آلة الطرب المفضلة عند شعراء التوراة.

---

(٣٦) جمع كلمة قينة وهي الأمة أو المغنية.

(٣٧) المارقة أو المسايرة في الموسيقى هي متابعة الغناء بالآلات.

وهذا المشهد المأخوذ عن أطلال "قويوندجيك" لم ير مثله في "خورزابادى" حيث كان الملك سرجون الرهيب لا يبدو إلا في بهاء عظمته الملوكية، على أن هناك رسومًا بارزة أخرى تطلعنا على تفاصيل حياه عامة الشعب الخاصة، فمنها ما يرينا الآشوريون مشغولون في مهام منازلهم اليومية مثل تنظيم الفراش، وشي اللحوم، وحس[٣٨] الخيل وتضميد جراحها، وما إلى ذلك من الأعمال المشابهة.

أو نرى صورًا لأناس سائرين بجانب مركبات محملة إما بعائلات، أو بغلال أو بأشياء متنوعة، تجرها أبقار مسنمة يظهر أنها من أبقار الهند.

وبعض الصور تمثل لنا مشهد وقوف تلك المركبات للاستراحة وقد رفعت عن رقاب الأبقار الأنيار[٣٩] لتأكل، بينما الرجال يتناولون الطعام من صحاف أو يشربون من القرب.

وفوق هذا الشريط من الرسوم البارزة التي وصفناها للقارىء، على قدر الامكان، نجد شريطًا زخرفيًا من طراز آشوري محض، وهو عبارة عن صفين من الأجر الخزفي، أرضيته زرقاء وعليها زخارف ملونة مقتبسة من الحياة النباتية والحيوانية".

ونحن حين نطالع هذا الوصف الدقيق الذي لم يتعد فيه النقاش دائرة الحقيقة، على ما نظن، نرى هذه النقوش العجيبة في نضارتها كأنما انتهى المصور من رسمها بالأمس فقط.

على أن مؤرخي الإغريق الذين رأوا هذه النقوش المدهشة لم يتمادوا في الوصف بهذا التدقيق البديع.

---

(٣٨) حس الدابة أي نفض عنها التراب بالمحسة.

(٣٩) أو النيران مع كل نسر، وهو الخشبة المعترضة في عنقي الثورين بأدائها.

إن الفضل في بعث ذلك الماضي السحيق من قبره يعود إلى قدرة العلم الحديث الآن على إنطاق رمال ما بين النهرين الخرساء، كما سبق وقطع صمت أبو الهول المصرى قبل ذلك بزمن يسير، فمنذ أقل من قرن بدأت تعود إلى مسرح التاريخ شعوب كان لها أعظم شأن في تكوين الحضارات القديمة قبل أن يدل عليها ستار الظلام والنسيان.

فنحن الذين كنا نمقتهم لما كانوا عليه من خشونة وقوة، ونظر إلى مآثرم كأنها من نسج الخيال، نرى أنفسنا الآن مضطرون إلى إحناء رؤوسنا تقديرًا لما تركوه لنا من الأعمال الباهرة، فقد كانوا أساتذة أساتذتنا، وذلك لأنهم هم الذين علموا قدماء اليونانيين، ولأنهم ساهموا بنصيب وافر في وضع أساس بناء الحضارة العظيم، وهذه الامبراطوريات القديمة تمثل الحد الفاصل بين إنسان الزمن البدائي المتوحش وإنسان الزمن الحالى المثقف.

ونرجو أننا بإخراج الشعوب التي بادت ودرجت في أكفانها الترابية منذ أقدم الأزمان من ظلام قبورها إلى نور المدنية الحديثة نتمكن من فهم كيفية تكوين هيئاتنا الاجتماعية الحالية، وربما توصلنا إلى كشف القناع السحري عن مستقبل المدنية الغامض.

الباب الثامن

النحت، والتصوير الملون، والفنون الصناعية

١ - النحت :

لم يكن في كل بلاد ما بين النهرين (على ما ظهر لنا إلى الآن) سوى فن واحد، فلم يكن هناك فن كلداني وآخر آشورى.

وكما حدث في مصر، وفي كل الأمم، قد بدأ هذا الفن كغيره من الفنون، جنينًا فطريًا، ثم أخذ ينمو ويدرج، متسكعًا في الظلام، يتلمس طريقه بتقليد الطبيعة ومحاكاتها بأسلوب أخرق ساذج، ولكنه أمين على قدر الإمكان، ثم رأيناه يبلغ أوج مجده وبهائه، ويعقب ذلك طور الركود بالركون إلى النقل وتقليد النماذج الشهيرة بلا تجديد أو إلهام، حتى ادركه دور الانحطاط فالموت.

وهذا التاريخ، الذي ينطبق على كل المذاهب الفنيه، يمكننا تطبيقه على كثير من أمم العهد الغابر أو الحاضر، ولكن الباحثون لم يتمكنوا إلى الآن من العثور على كل صور التطور الفني في ما بين النهرين، لأن كثير من الفجوات في تسلسلها يضطرهم إلى الحدس والتخمين، ويمنعهم من تحديد الطريق التي سلكها الفن تحديدًا واضحًا، وعسى أن تهدينا أعمال الحفر والتنقيب في مستقبل الأيام السبيل إلى ملء هذه الفجوات باكتشاف آثار جديدة توقفنا على إحكام الارتباط والتدرج بين المجموعات التي وصلت إلى الدينا.

أما ما عثرنا عليه إلى الآن من أعمال النحت فينحصر في بعض نماذج من عهدين مختلفين، أحدهما العهد البدائى أى عهد نشوء هذا الفن، والآخر عهد بلوغه أوج عظمته، وعندما أخذ يتحول من أن يكون فنًّا إلى عمل نمطي (مرد النسق) أو غرفي.

فمن التماثيل التي نبشها المسيو دى سارزاك في "تل لوح" (Tel-Loh) في بابل، ونقلت إلى متحف اللوفر بفرنسا، لم تمتد إلا إلى طور قديم جدًا من أطوار فن النحت في ما بين النهرين.

وما عثر عليه المنقبون في نمرود وفي خورساباد وفي كوبوندجيك يدل على العهد الذي فيه ترعرع هذا الفن وسما، على أنه انقطع وقتئذ عن الأخذ عن الطبيعة، وأخذ يسير طبقًا للقواعد والتقليد (العرف)، وكان كلما طال عليه العهد، اسم بطابع المحافظة على الشكل المألوف أو الأصول المرعية، وبعد عن حرارة الحماس الفني.

ولكي نحكم على ما بلغه فن النحت بعد ذلك، يجب أن نجد في تلال بابل من الأعمال الفنية الكثيرة التي تمت، على ما نعلم، في عهد الملك نبوخذ نصر، والتي لا بد وأن يكون باق منها ولو بعض أنقاض تحت الرمال.

أما من حيث خامة فن النحت، فإنه فاق في عهد الإمبراطورية الكلدانية الثانية ما كان عليه في عهد ملوك نينوى، بقي علينا أن نعرف ما إذا كانت براعة الفن أم نفاسة المادة التي صبغت منها الرسوم الناتئة أو التماثيل الذهبية الفخمة هي التي أجرت قلم هيرودوتس وديودورس بالإشادة بذكر ما رأياه، وهل كانت توجد عندئذ نهضة فنية حقيقية وهذا ما يصعب تصديقه، لأننا نرجح أن ملوك بابل المتعجرفون دفعهم الحسد إلى طمس مجد أسلافهم النينويين، فأكثروا من كمية ماصنعوه من المنتجات الفنية، وصرفوا النظر عن جودة النوع والقيمة

الفنية، وعمدوا إلى تقليد النماذج الشهيرة التي كانت تزدان بها (نينوى) عاصمة الشمال بدلًا من التريث وانتظار إلهام فني مبتكر.

ثم إن هناك نقطة جديرة بالالتفات والاهتمام لأنها تدل على شيء من الاختلاف بين صناعة نحت التمثيل في بابل وفي آشور، فالمنقبون لم يعثروا على تماثيل منعزلة بعيدة عن الجدران وظهورها منقوشة بكل عناية وإتقان إسوة بوجوهها إلا في أطلال تللوح البابلية، وهذه التماثيل عدة نماذج من فن النحت الساذج ولكنها في ذات الوقت تدل على حيوية فن نحت التماثيل وأمانة المثالين.

أما في آشور فقد كان جل اهتمام فن النحت منحصر في الرسوم والنقوش البارزة، أما التماثيل المنعزلة النادرة، كتمثال الإلاه نيبو (Nabo) وتمثال الملك آشور نازيربال (Asstr-unzir-pal) فإنها أعدت لكي تستند إلى جدار، لأن الذين نحتوها لم يحصروا اهتمامهم إلا في الجهة الأمامية فقط وتركوا الجوانب والظهور بلا تسوية أو نقش.

ويظهر أن التماثيل المنفصلة عادت إلى الظهور في بابل في عهد الامبراطورية الأخيرة الزاهر، وقد روي هيرودوتس وديودورس أنهما رأيا منها في معبد بعل تماثيلًا هائلة الحجم من الذهب، ولكن تماثيل تللوح التي اكتشفها بعثة المسيو دي سارزيك، وأهدتها إلى متحف اللوفر (الفرنسي)، ويظن أنها أقدم تماثيل أرض ما بين النهرين، ليست أقدم من تمثال "الكاتب" (Scribe acceroupi) أو تمثال "شيخ البلد" (Sheikh-el-bald) المصريين. ويمكن بوجه التقريب تحديد تاريخ صنعها بثمانية عشر قرن قبل التاريخ الميلادي، وقد وجد عليها اسم جوديه (Goudiah) الذي يحتمل أن يكون اسما الملك بابلي. ولكن ليس هذا الاسم المجهول إلى الآن هو الذي يحملنا على تقدير تاريخ نحت هذه

الماثيل، بل أن نسق الحروف التي تتكون منها الكتابة المحفورة عليها هو الذي يحملنا على هذا التقدير التقريبي.

كذلك لا يمكن أن تكون هذه التماثيل من آثار الفن البابلي العتيق، لأن الذهب الذي غشاها أجيالًا عديدة كان أجدر بإثارة شهوة وهم الفاتحين الذين تعاقبوا على هذه البلاد أجيالًا عديدة، سواء أكانوا عيلاميين (elamite) أو نينويين.

إذن لا بد أن تكون بابل قد احتفظت بعض التقاليد التي لم تكن مرعية في شقيقتها نينوى،على أن هذه التماثيل، وإن كان عددها محدودة، أم كانت واقفة أو جالسة، أو ناقصة الرؤوس، لها أهميتها العظمى من حيث تاريخ الفن، لأن عليها طابع السماجة والسذاجة، وإسوة بأقدم ما عثر عليه من التماثيل المصرية (في وادي النيل) يظهر عليها مقدار المجهود الذي كان يبذل في سبيل إتقانها والوصول بها إلى أقرب ما يمكن من حدود الطبيعة، حتى أن الإنسان ليعجب بنوع أخص من أوضاع أطراف الجسم والدقة المتناهية في إظهار نتوءات العضلات للتعبير عن الحركة.

وقد عثروا على رأسي تمثالين يظهر أنهما من منع ذلك العهد ولكنهما قليلًا الأهمية لأنهما مهشمان تهشيمًا مشوهًا، فإذا كان فن النحت البابلي قد استمر سائرًا في هذا الطريق دون توقف، فإنه لابد وأن يكون قد توصل إلى إنجاز أعمال من بدائع الفن في غاية الأهمية سيكتشفها المنقبون يومًا ما.

ولسوء الحظ أن المنقبين عندما يعودون إلى تتبع آثار الفن من جديد، سيكون ذلك في نمرود، بأشور، حيث كان عمل الفنانين الرسمي مقصورًا على تمجيد الملوك، ولكنهم سيجدون أن هذه الآثار وإن كانت تفوق آثار مثالي سيرتلا (Sirtella) (وهو الاسم القديم لتل لوح) الساذجة، لكنها قد فقدت إلى

الأبد الاهتمام بالأوضاع الحقيقية وبجمال الجسم البشري الحقيقي.

أما الفترة القصيرة التي اهتدينا في أثنائها إلى الإلمام بالفن الأشوري فإنها تبدأ من حكم الملاك أشورنازيربال (Assur-nazir-pal) إلى نهاية تملك أشوربانيبال (Assur-nazir-pal) بما في ذلك كل عهد الدولة السرجونية المجيد، وهكذا تكون مدة هذه الفترة لا تتجاوز قرنين ونصف قرن، أي من سنة ٨٨٢ إلى سنة قبل الميلاد.

ومع أنها كانت فترة قصيرة إلا أنها تركت لنا كمية عظيمة من الآثار التي سلت من عبث المتقين، وهذه التركة الأثرية يصح تقسيمها إلى ثلاثة مجاميع بمقتضى ثلاثة أدوار معينة هي بمثابة أجزاء الأطوار الكبرى في التاريخ العام لهذا الفن.

وكل دور من هذه الأدوار الثلاثة ينطبق من جهة الفن على كيفية عمارة قصر ملكي، فعند ذا أولًا قصر آشورنازربال في أطلال نمرود، التي كانت تسمى كلح (Kalah)، ثم ثانيًا قصر الملك سرجون في أطلال خورساباد التي كان اسمها دور سركين (Dur-Sarkin)، وثالثًا قصر الملك أشوربانيبال في خرائب قويوندجيك (نينوى القديمة).

وهناك قصران ملكيان آخران، أحدهما كان للملك سنحاريب[٤٠] في نينوي، والآخر لأسارخدون[٤١] في كلح، وفي كلاهما من الآثار ما يجب أن يعتبر بين الدورين الأخيرين المذكورين في الفقرة السابقة، وذلك مما على هذه الآثار من التواريخ ومن النقوش والكتابات.

(٤٠) Seunacleril ابن سرحون ملك آشور، وقد ارتقي عرش الملك في سنة ٧٠٥ وقتل في سنة ٦٨١ قبل الميلاد بيد ولديه (راجع سفر ملوك الثاني الإصحاح ١٩ والمدد ٣٧، ونبوة أشيعا إصحاح ٣٧ وعدد ٣٨).

(٤١) Assur-Haddon من سنة ٦٩٠ إلى ٦٦٧ قبل الميلاد.

وفي متحف اللوفر عدد وافر من لوحات النقوش والرسوم البارزة التي وجدت في كلح وفي خورزاباد، ولكنها كآثار أشورية قديمة ليست بنفاسة العاديات المصرية التي لا ينافس فرنسا فيها سوى متحف (بولاق) [٤٢] مهر، بينما نجد أن المتحف البريطاني في لندن يحتفظ بأعظم العاديات التي جلبت إليه من بلاد ما بين النهرين.

ويمكن اعتبار آثار قصور نمرود وخورزاباد وقويوندجيك كا سياسات الثلاثة مذاهب فنية، بينها وبين بعضها الفروق الآتية:



فالمذهب الأول يمتاز بالفخامة والمهابة المقرونة بالخشونة والبساطة، ولا ترى في رسومه البارزة سوى أشخاص قليلة العدد، هائلة الحجم. وأرضية الصورة مجردة من أي نقش، وصور المناظر، حتى إذا كانت تمثل موقعة حربية أو حادثة صيد، فإنها تكون عليها دائمًا مسحة الهدوء والسلام والنبالة، وتوجد منها نماذج في المتحف البريطاني.

---

(٤٢) المتحف المصرى.

وهذه الصورة التي يبلغ طولها متران وواحد وثلاثين سنتيمتر) تمثل أسورنازيربال يقدم قربان خمر (سكيبة) للآلهة.

وكذلك ألواح المرمر فإن لها نفس الارتفاع، لأن الغرض منها هو تغطية المساحات ذاتها التي بين "التجليد" الأسود اللون والتغذية التي من الخزف المطلي بالميناء (القيشاني) الذي ينتهي إلى محاذاة السقف، ولكن في خورزاباد، وخاصة في قوبوندجيك، نجد أن اللوحات مقسمة إلى عدة سجلات، والأشكال (الصور) يصغر حجمها شيئًا فشيئًا، وأرضيتها مثقلة بالرسوم البعيدة عن أصول الفن، مع محاولة سمجة نحو رسم "المنظور"، فيرى الناظر خلف صورة الاشخاص أسوار المدن، وأشجار الغابات، والنهر بسفنه وسماكيه يشق طريقه بين الحقول.

وكلما اقتربنا من الزمن الذي نعيش فيه الآن كلما تزاحمت الرسوم وفقدت ما كانت عليه من التناسق والإتقان، وإن كان بعضها لا يزال حافظًا لرونقه.

على أن بعض المميزات الخاصة تكفي حتى لنظر قليل الخبرة والرسوخ في الفن أن يتعرف على الرسوم (البارزة) الأقدم من الرسوم الأجد، فالرسوم القديمة تمتاز بكثرة الكتابات أو النقوش التي تتوسط "موضوع الصورة" حتى أنها أحيانًا تحجب جانبًا من أشخاصها، أما الرسوم الأجد فإننا لا نجد هذه الكتابات أو النقوش، أو على الأقل لا نجدها إلا في "حقل أو أرضية الصورة".

على أن الحفارين الآشوريين لإنهماكهم في تصغير الصور واهتمامهم في الإفاضة بالتفاصيل قد اكتسبت أيديهم مهارة غريبة، فنجد أن أوراق الشجر التي في نقوشهم محفورة بدقة متناهية تمكن الناظر إليها من معرفة نوع النبات الذي أخذت صورتها عنه، وهكذا يمكن بكل سهولة تمييز ورق النخيل من ورق أشجار التين أو ورق كرم العنب والعناقيد، حتى المحاليق فإنها تظهر واضحة أتم

وضوح، وهذه الدقة المتناهية تراها في صورة الخيل وتجفافيفها، كما تراها في الثياب وغضونها وأهدابها ووشيها وتطريزها الذي كان من أحب الأشياء لدى أهالي نينوى المترفين.

نعم إن الفن كان لسبب ما، غارقًا في لجة ان هذه التفاصيل الفنية، ولكن في قويوندجيك ابتعد عن السذاجة الأخاذة التي نراها في تماثيل تل لوح، أو البساطة النبيلة التي تمتاز بها النقوش البارزة الكبيرة الحجم في نمرود، حتى أصبح فن النحت عبارة عن "صناعة" لا همّ لأربابها إلا تكرار تقليد ذات النماذج القديمة تكرارًا سخيفًا على الدوام، غير حافلة بإظهار معالم وجوه الأشخاص عند رسمهم، فكانوا يستعملون النموذج الواحد، الذي أمامهم منذ زمن بعيد، في تصوير الملوك إسوة بتصوير العبيد، بلا تمييز على الإطلاق، أو تصوير الجنود وقواد الجيوش على حد سوى، وكذلك كانوا يكررون النموذج بعينه لصنع الآلاف من النسخ من ألواح النهاء (المرمر) الرخو، دون اجتهاد أو جهد أو عناء في سبيل التحسين أو الابتكار.

حتى في الصور المنحوتة التي تمثل مجاميع أشخاص، فان أمرها انتهى كذلك إلى الجمود وعدم التنويع أو التغيير، فترى، مثلًا في كل الرسوم التي تمثل ملوك ذلك العهد، ذات الملاك جالسًا على ذات المركبة بذات الوضع، ونفس سحنة الأعداء الجاثون عند قدمي أحدهم، هي نفس السحنة التي نجدها في صورة ملاك آخر، وكذلك صور الصيد، وصور تعذيب الأسرى والتنكيل بهم، وصور الأعداء بعد قهرهم وهم يسيرون متحاملون على أنفسهم في صفوف طويلة تحت غصي حراسهم، فانها كلها متشابهة كأنها منسوخة عن أصل واحد مصطلح على استعماله لكل الملوك.

فعندما يفرغ المعلم من رسم هذه المناظر الرخامية المثبتة في الجدران،

يعكف جيش الصناع على ملء هذه الأشكال المرموز بها إلى الملوك والأفراد بالمشاهد التي تخلد لعامة الشعب، في ردهات القصور الفسيحة، تفاصيل ذكرى الانتصارات المجيدة، لتبث فيه روح الزهو الوطني والنعرة القومية، بينما تتعب في ذات الوقت عيون الأجانب المتفرجين.

فمن أعظم عيوب فن النحت عند الآشوريين اطراد النسق الممل، لأن ذات الموضوع، والإلهام، والخواطر المألوفة هي التي أجرت إزميل النكات في الحجر الصلد لمثل الملاك المنتصر وهو يسحق أعداءه في الحرب، ويردي الأسود في مطاردات الصيد، ولا يتسلى أو يهنأ له بال إلا إذا رأى الأسرى تسلخ جلودهم وهم على قيد الحياة، أو يعانون آلام القتل على أعمدة الخوازيق، أو أن يتلهى بتفقئة عيون أعدائه بأصابعه.

ثم إن الحفار الذي ينصرف إلى دراسة هذه النماذج وأمثالها على حيطان القصور، ثم يمارس صنعها مرات عديدة، ويرى أنه مقضي عليه أن لا ينتج غير هذا مدى كل حياته، ينتهي به الأمر إلى السلامة المحزنة التي تتسرب من شخصه إلى إنتاجه الفني، ثم تجتاح شعور الناظر إلى هذا الإنتاج فيتحول إلى اشمئزاز بعد الوقوف وقتًا قصيرًا أمام هذا الجثام (الكابوس) الذي يرى فيه كل مظاهر الوحشية التي تلازم الانتصارات الحربية.

وهذا التهتك الدموي الذي ظلت نينوى تتردى في حمأته زهاء مئتي سنة نرى رسومه محفورة على الجدران بكل أمانة وإخلاص للفن الذي كان معروفًا في ذلك العهد، حتى أن المتأمل في هذه الآثار يرى في نفور العضلات وبروز المفاصل واتساع الخياشيم الدال على القسوة، وتركز نظرات العيون الواسعة الدال على الشراسة، ما يشعره بأن سيطرة الخواطر المزعجة التي لازمت هذا الشعب، هي التي أوحت إليه بأول تخيلات هذا الفن.

فلست تجد في فنهم طابع الرشاقة أو الحسن، أو التهكم والسخرية، حتى ولا الضحك أو الابتسام، بل ترى في سحنة الأشخاص صورة من وجه حيوان مفترس لا يحرك شفتيه إلا لكي يزمجر أو يلتهم فريسة، وملامح الوجه وعضلاته لا تنبسط لحظة بل تظل دائمة التقلص والتوتر تحت البشرة كأنها مشدودة بقلوس[٤٣] فولاذية.

ثم إن الفن النينوي لم يهتم بأن يرى في جسد الإنسان إلا أداة أو آلة من آلات الحرب كالمنجنيق (catapuh) أو الكبش (belier) مثلًا، التي قدر عليها ألا تعرف التناسق أو الليونة والرشاقة إلا في التقتيل والتعذيب، أي أن الجسم الآدمي الذي خلق على أجمل صورة وأحسن مثال، مما حدا بالمصريين أن يتفننوا في تصويره عاريًا مجردًا من الكساء لكي تملى عيونهم بمحاسن تقاسيمه وانسجام أعضائه؛ هذا الجسم الإنساني الذي ألهه قدماء اليونان لحسنه وجماله، لم يجرأ الفن النينوي على إظهاره عاريًا، ولعل سبب ذلك هو أن الرأي الشرقي العتيق، كالحديث، يرى في الجسد البشري العاري عارًا يجب ستره، وقد قال هيرودوتس:

"إن الليديين[٤٤] كغيرهم من الشعوب المتبربرة، يعدون التجرد من الثياب، سواء أكان للرجال أم النساء، عارًا فاضحًا"

ولم يقتصر البابليون والآشوريون على عدم الظهور أمام الناس عراة، بل كانوا يرتدون أثوابًا طويلة سميكة، وأردية طويلة تصل إلى كعوب أقدامهم، وشيلانًا يلتحفون بها فتخفي قاماتهم، وقلانس تغطي رؤوسهم وتخفي تحتها

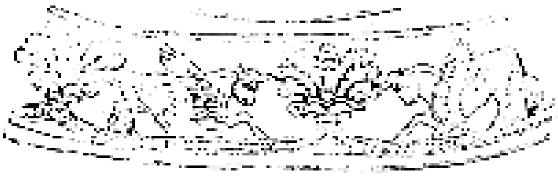
(٤٣) جمع كلمة قلس وهو الحبل الضخم.

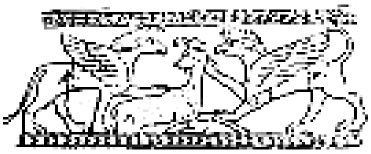
(٤٤) ليديا مملكة قديمة في أسيا الصغرى، تقع بين بحر ايجه وبلاد فريجيا القديمة ، كانت عاصمتها سارداس المذكورة في سفر الرؤيا من الانجيل.

جباههم، وكانوا يقلدون الساميين في إطلاق لحاهم وعوارضهم لتخفي شفاههم وخدودهم إلى الأنوف فلا يظهر لها أو لأفواههم أي أثر، حتي إن شعور رؤوسهم الجعداء كانت تغطى أقفيتهم، فكيف كان يتسنى لفناني مابين النهرين أن يعرفوا ويصوروا مثل هذه الاجسام البشرية التي فاض شعاع جمالها تحت إزميل فيدياس (Phidias) وبراكستيل(Praxittle) المثالين الإغريقيين حتى أبلغوها مرتبة الآلهة؛ والتي بلغ من أمرها في وادي النيل أن أضافوا إلى محاسنها حسنًا ورشاقة وسحرًا.

أما المرأة فلم يخطر للأشوريين أن يظهروها في رسومهم كاسية أوعارية، وما وجد منها، وهو في حكم النادر، قد كان دميم الصورة، أشوه الخلقة، مما يبعث على الاعتقاد أن المثال الذي صنعها لم تكن له أية خبرة في صنع الرسوم أو التماثيل النسائية، ثم أن بعض التماثيل الصغيرة لإلامة الشهوة إستار (Istar)، التي لقوها ممتعة الرجال والأرباب، فينوس الشرق، لم تعرف عند العثور عليها إلا لأنها عارية، ولكن يا لسماجة ذوق الصانع الذي صنع هذه الدمى!، وما أوسع الفرق بين قسمات جسمها الثقيل البشع وجسم الملكة المصرية البديعة التكوين "طايا" (Taia).

وهكذا يكون النقد الذي يمكن توجيه إلى فن النحت الأشوري في محله، ولكن يجب أن يتوجه إلى أخلاق وصفات الجنس الأشوري، قبلها بوجه إلى ناحية الفن نفسه. ففي كل مرة يتيسر للفن أن يفلت من تلك القيود الأخلاقية التي كانت مضروبة عليه، تمكن من صنع تحف فنية في غاية الروعة والجمال. وهذا يسهل إدراكه عندما نتأمل تماثيل الحيوانات التي صنعها المثالون الآشوريون فنجد أنها أجمل بما لا يقاس مما صنع من نوعها في أي مكان.

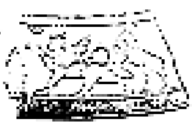




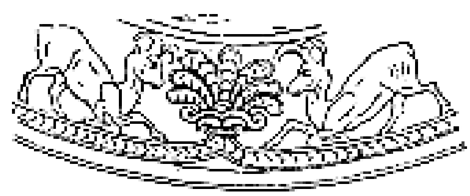














حقيقة أن قدماء المصريين كان لهم ولع خاص بتصوير الحيوانات، وكانت لهم في ذلك شهرة طائرة، ولكنهم كانوا يكتفون بتصوير خيالها (صورة الخيال الأسود للشيء) مع تنويع كثير في أوضاعها. على أنهم لم يعرفوا كيف يتقنوا رسم الخيول، لأنهم لم يعرفوها إلا في العهد الأخير الذي وقف عنده الفن عن النمو والتقدم مكتفيًا بالنقل عن النماذج القديمة (الكلاسيكية).

وبعكس ذلك كانت الحال في ما بين النهرين، فإن رسوم الحيوانات هناك، سواء أكانت بارزة أو مقببة، فإنها لإتقانها البديع تكاد تكون ناطقة، بينما ترى كل الصور البشرية متشابهة تمام المشابهة كأنها مصبوبة في قالب واحد، لا فرق فيها بين إنسان وإنسان، حتى أن الصورة المعزوة إلى الملك أشوربانيبال نجدها تنطبق تمام الانطباق على صورة الجالس إلى جانبه ماسك زمام خيل المركبة فاعتبرناه سائق مركبته؛ في حين أن صورة كل جواد من جياد المركبة تختلف كل الاختلاف بعضها عن بعض.

ولم يكن عند المثالين الآشور بين أسدان متماثلان في زئيرهما، ولا كلبان يطاردان طريدهما أو يهاجمانها على وتيرة واحدة، ولا حيوانان جريحان يحتضران وهما في وضع مماثل، كما في تمثال "اللبوة الجريحة" الشهير، الموجود في المتحف البريطاني، ويعد من أفضل تحف فن نحت التماثيل في كل العصور، ففي هذا التمثال النادر ترى كيف أن لبوة بديعة التكوين، وقد نشب سهم الصياد في سلسلة ظهرها الفقرية، أخذت من "حلاوة الروح" تتحامل على نفسها لتجر نصفها الخلفي الذي شل، فاغرة فمها تزعق متأوهة من شدة الألم، فتشعر وأنت تتأمل فيها كأن زئيرها يرن في أذنيك، وفي تمثال آخر ترى أسدًا آلمه سهم ناشب في جسده فانقض على إحدى مجال (دواليب) المركبة التي انطلق منها السهم ينهشها تشفيًا من غيظه، وفي تمثال ثالث ترى أسدًا إرتز السهم في كتفه فأخذ

يدور بحركة جنونية ملؤها الغيظ والعجز.

ويستطيع الكاتب أن يملأ مجلدًا ضخمًا بالكلام على كلاب الصيد البديعة، أو الثيران والأبقار والغزلان، والحيوانات الغريبة كالإبل الهجان، والأفيال، والقرود، والنعام التي تخلد صورها إزميل المثال الآشوري بكل دقة وإتقان.

وهذا الأزميل قد ترك لنا أيضًا صورة للخيول في غاية الجمال؛ ولكن أحسنها وأبدعها صورة ما كان منها طليقًا في حركاته، كما لو كانت تستقي من النهر أو كانت تستريح في المراعي أو آبدة في الأحراش والمروج؛ وبخلاف ما إذا كانت مشدودة بعدتها الفاخرة إلى مركبات الحرب، ففي هذه الحالة الأخيرة ترى أن العرف قد تدخل بين الأزميل والفن، فأصاب صور الخيل ما أصاب صور البشر قبلها من التزام نموذج طرد النسق.

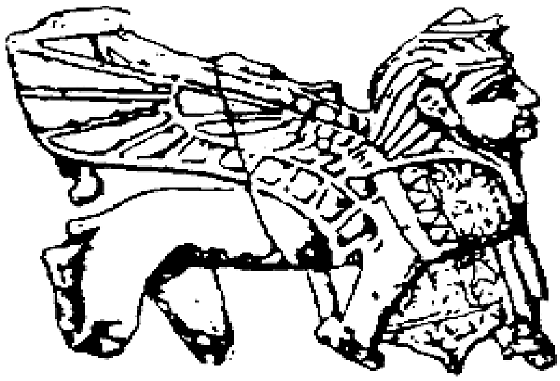
وهكذا نجد أن الفنان الآشوري عندما سمحت له الفرصة بالفوز بصورة حية، كما فاز بصور الحيوانات الطليقة أو الآبدة في البرية، أو بالحري عندما كان يجد نفسه غير محصور في دائرة حدود موضوع ضيق، أو غير مقيد بقيود التقاليد المرعية الملازمة لهذا الموضوع، أو بعيدًا عن أجساد محتجبة بما يثقل عليها من أكوام الثياب، فإنه تمكن من أن يتحفنا بما يضارع أفخم وأجمل ما أنتجه فن النحت عند كل شعوب العالم.

وسنحاول فيما يلي أن نبين كيف أن فن النحت في ما بين النهرين قد أنجب في الإغريق وروما، فتمثال "مينرفا" صنع فيدياس(٤٥) (Minerve de

(٤٥) آلهة الحكمة والفنون عند الإغريق- وفيدياس اسم تمثال إغريقي من سنة ٥٠٠ إلى ٤٣١ ق. م.

Phidias) أو تمثال "فينوس"[٤٦] ميلو (Venus de Milo)، وتمثال "جوبيتر[٤٧] الأولمبي" (Jupiter d'Olympie)، وتمثال "أبولو[٤٨] البلفديري" (Apollon du Belvedere) ما هم في الواقع إلا الأولاد الشرعيين لتلك التماثيل السمجة التي وجدت في "تل لوح" مركزة على قواعدها بلا ذوق، وسوف نوضح بيان هذه البنوة بالتفصيل في موضعه.

وحسبنا الآن أن نكتفي بما ذكرناه للدلالة على أن الفن الاشوري لم تنقصه الكفاءة بل كانت تعوزه الفرصة للنهوض والسير في طريق الكمال.



ولو نظرنا إلى هذا الفن كما هو، بعين الاخلاص، وجردناه من كل ما اكتنفه من عراقيل التقاليد الرسمية المرعية، لوجدنا أنه كان واقعيًّا (Realiste)، بعيدًا عن وحي الخيال، نعم إن الأشوريين كانوا يصورون في بعض الأحيان

(٤٦) آلهة العشق والجمال عند الإغريق- وميلو اسم جزرة في بحر إيجه حيث وجد تمثال فينو في سنة ١٨٢٠.

(٤٧) إلاه الآلهة عند الاغريق والرومان، والأولمب اسم جبل مقدس عندهم، وهذا التمثال كان يعد من عجائب الدنيا السبع.

(٤٨) إلاه الجمال والرجولة والموسيقى- اسم متحف كان في الفاتيكان بروما. وهذا المثال يعد أفخم تماثيل روما.

معبوداتهم في أشكال خيالية نصفها بشري والنصف الآخر حيواني، كما فعل المصريون، ومع أن ذلك كان عرضًا، ولكنهم كانوا فيه من المجيدين.

وإلى هذه الطبقة من فنانهم ينسب فضل صنع الثيران ذوو الرؤوس الآدمية، وكذلك "كروبيم"(٤٩) الإسرائيليين الذي ذاع اتخاذها كنماذج فنية في كل أنحاء أسيا القديمة خصوصًا في بلاد الفرس.

وهذه الهول(٥٠) المهيبة التي يبرز مقدمها من الجدران كأنه خارج منها، نرى مؤخرها يتضاءل ويتفرطح حتى يستوي وجدران البناء؛ هذه الهول كانت تستعمل الزينة مداخل القصور بينما كانوا يعتقدون أنها لحراستها.

ثم إن صنع هذه التماثيل بأجسام عظيمة القوة، واجنحة منبسطة، وسيقان رشيقة كأنها تحرك متقدمة إلى الأمام، ورؤوس شامخة جليلة، ووجوه عليها سيمة البشاشة والطلاقة والرزانة، هو ما جعل للفن الاشوري المادي العنيف شيئًا من الخيالية.

وهذه التماثيل الضخمة التي تلقى المهابة والوقار في روع الناظر إليها، فإنها، وإن كانت تماثل تماثيل أبي الهول المصرية الرابضة عند ضفاف النيل شكلًا، إلا أنها لا تحاكي سكونها الساخر.

فالثيران الآشورية تخطو إلى الأمام كأنها قادمة لتدفع كل من يجترى، على أن يتهدد مسكن الملك؛ بينما ترى تماثيل أبي الهول وكأنها لا تفكر في الملوك ولا في الناس، بل ترنو إلى الصحراء ورمالها كأنها تسبح في خيال حلم لذيذ.

---

(٤٩) المفرد كروب، وقد ورد ذكره في التوراة في جملة وضع، منها في سفر التكوين الإصحاح ٣٠ ، وسفر الخروج ٢٥-١٨، وفي حزقيال: من عدد ١٨ ،وفي عدد ١٩ "فوجه الإنسان نحو نخلة من هنا ووجه نحو نخلة من هناك" إلخ.

(٥٠) جمع هولة، وهي الشيء الكريه المنظر يفزع به الإنسان.

ويمكن معارضة (مقارنة) الفن الآشوري بالفن المصري في أشكال الحيوانات، وكذلك في الأصنام الضخمة الهائلة الحجم، أما فيما عدا ذلك من حيث الإنتاج الفني فإن الآثار الآشورية لا تعد شيئًا بالنسبة إلى ما وجدناه من الآثار المصرية.

ثم إن وحي الخواطر لم يكن واحدًا على شاطئ النيل وضفاف دجلة والفرات، الفن المصري كان ساميًا خليقًا بتمثيل الحياة المقبلة، وأعمال الآلهة المجيدة، وجلال الملوك أبناء الشمس، حتى إذ تناول ألوف المهن والأعمال المألوفة التي أجاد تصويرها أفاض عليها جمالًا سحريًا خلابًا ، وكأني بهذا الفن الساحر قد أحس بسمو منزلته عما في هذا العالم فاخفي أجمل ما أنتج من الآثار في ظلام القبور الأبدي لتفتتن به عيون الموميات (الأجسام المحنطة على طريقة قدماء المصريين) المصرية الجامدة.

أما في آشور فإن النحات لم ينشغل عقله بما وراء هذه الحياة الدنيا، لأن خشونة حياته الحربية، وحب الغزو والفتح بلا رحمة أو هوادة، لم يتركا في نفسه فراغًا لمثل أحلام وأوهام الأبدية، نعم إن كبرياء الملوك التي لاحد لمطالبها كانت المثال الأعلى الوحيد الذي كان النحات الآشوري يشتغل في سبيل مداجاتها، أما جمال الهيئة، ودقة الملامح ولطافة الأوضاع والخطوط التي شغفت المال المصري فإنها لم يرها زميله الخوارزابادي أو النينوي أقل اهتمام.

ولذات السبب لم يكن الفنان الآشورى يهم بإتقان الشبه الذي كان يتوخاه مثالو "الدولة القديمة" بدافع شدة تعلقهم بمعتقداتهم الدينية، فإن ما نشعر به من العطف والإنجذاب نحو تمثال الكاتب المصري، أو الأمير "رغ هوتب"، ولاسيما نحو الملكة "طايا" الرائعة الجمال، لايمكن أن نحس بما يضارعه عندما ننظر إلى الصور الآشورية البارزة، ذات السيقان العضلة، أو العضلات ذوات

الرأسين (في الكتف والفخذ) الضخمة النافرة، أو الخياشيم الواسعة للأنوف المعقوفة التي تنم صورها الجانبية (Profil)، المتشابهة كلها، عن غباوة وحشية وقسوة غشومة.

وكلما مررت بالقاعة الآشورية من متحف اللوفر (الفرنسي)، وتأملت مافيها من عجيب الآثار، مر بخاطري ما كان عليه الناس في عهد الرعب الذي تفشى فيه ظلام الجمل الرهيب والأحلام المزعجة، أي العهد الدموي الذي ساد الشرق عندما كانت السيادة والسلطان لهؤلاء الساميين السفاحين.

ولكي أزيل عن نفسي ما تركته عليها هذه الخواطر المؤلمة أخرج من هناك إلى الممر ذو السقف العقود الموصل إلى جناح الآثار المصرية حيث استمتع بمرأى تماثيل الآلهة وأبي الهول والفراعنة، حتى تمثال الكاتب المتواضع، وهي ترمقني بنظراتها العميقة العذبة التي تدل على منتهى الرقة والذكاء، وكأنها تشاركني نفس أحلامي رغم الأزمنة البعيدة التي تفصل بين عصرينا.

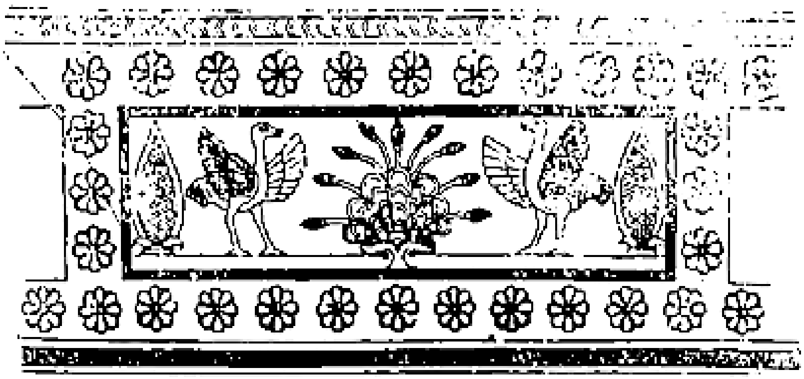
٢- التصوير الملون والقيشاني:

كان الشرق على الدوام مشغوفًا بالآلوان الزاهية الثابتة، وقد عرف منذ أقدم الأزمان كيف يصنعها،

وعندما تكلمنا على مصر[٥١] أفضنا في بيان سبب هذا الذوق الذي منشأه الحاجة إلى اتقاء تأثير ضوء الشمس الشديد، ولكي تكون الألوان وسيلة إلى إظهار النقوش البارزة، والأبنية التي لو تركت بيضاء لاختلطت بما يكتنفها من الضياء واختفت فيه.

---

(٥١) في الجزء المختص "بمصر" الذي نشرته المطبعة المصرية باسم "حضارة مصر القديمة".



على أننا ندفع الآن أغلى الأثمان لاقتناء الأبسطة الشرقية الفاخرة، والطنافس النفيسة ذات الألوان الثابتة، التي يعود سر تركيبها إلى قدماء الكادانيين، لأن سكان بابل وآشور كانوا يفتنون بكل ما هو زاه باهر جذاب من الآلوان، حتى أنهم كانوا يطلون بها جدران بيوتهم كلها، وكذلك قصورهم ومعابدهم، وما كانت الزخارف التي على جدران "إكبتان"[٥٢] إلا أثرًا من ولعهم الشديد بالآلوان.

ومع ذلك، فإن تعدد الألوان كان يستعمل في الرسوم البارزة في ما بين النهرين بأكثر تحفظ مما في مصر.

في وادي النيل كانت الصور المنحوتة على الجدران تطلي كلها بالألوان، بخلاف الحال في بابل ونينوى، حيث كانوا يستعينون باستعمال الألوان في إيضاح بعض التفاصيل مثل لون اللحية والشعر والعيون أو احتقانها، والقلانس والأحذية، وأهداب الملابس، والأسلحة، وعدة الخيل.

ولقد سبق لنا القول إن آشور هي التي علمت الإغريق، ولذلك أخذوا

---

(٥٢) اسم قديم لعاصمة مادي القديمة، وفي مكانها الآن مدينة حمدان في بلاد الفرس.

عنها هذه الطريقة الفنية، كما أخذوا عنها دروسًا أخرى.

وقد تردد المختصون زمنًا طويلًا قبل البت في موضوع تعدد الألوان عند الآشوريين، فهل كان ذلك عامًا عندهم كما كان عند المصريين، أم كان محدودًا كما كان يفعل الإغريق من بعدهم.

أما الآن، فإنه لم يبق للتردد مكان بعد ما ظهر من الأدلة القاطعة؛ منها أن أثر الألوان الذي تمكنوا من اكتشافه يدل على أن الألوان لم تسعمل عند الآشوريين إلا في إيضاح بعض تفاصيل معينة ومتشابهة في كل التماثيل المنحوتة، وأنها لم تستعمل قط في سطوح واسعة كقواعد التماثيل، أو في تصوير الأجسام العارية، أو أقمشة الملبوسات، وكذلك لا سبيل للظن أن أثرها قد امحي وانطمس من مواضع معينة متماثلة في كل الحالات، مع بقائه وثباته في أماكن أخرى متشابهة.

وإذا كان الزمن هو العامل الأول في محو أو طمس هذه الألوان، فقد كان من المحتم ثباتها وبقاؤها في الأجزاء المنخفضة، وزوالها من الأجزاء النافرة في النقوش البارزة ذاتها، ولكن الواقع غالبًا يكون على عكس ذلك. فحدقات عيون الثيران المستديرة البارزة كثيرًا ما نجدها باقية ملونة، بينما نجد أن الأول (الحفر أو الحزوز) الغائرة التي تمثل تجعدات الشعر لم يظهر عليها أي أثر للألوان.

وهذه الملاحظات الدقيقة كان لها أثرها الواضح عندما نبشوا النقوش البارزة، وكانت محتفظة برونقها وألوانها، وقبلما تعرضت للهواء الجوي، إذ كان الفرق أوضح بكثير مما هو الآن بين الأجزاء الملونة وغير الملونة.

وعلاوة على ذلك فإننا نجد أن تعدد الألوان لم يكن مستعملًا في بابل وآشور إلا في صنع التماثيل، وبغاية التحفظ كما سبق القول، والمواضع التي ليس عليها نقوش بارزة من الجدران، كانت طلى بألوان إما بالطريقة المعروفة

عند النقاشين باسم "فرنكو"[٥٣] أم تغشى بقوالب أو مربعات الطوب المطلية بالمينا بألوانها البراقة.

وإلى الآن لم يعرف على وجه التحقيق ما اذا كان الآشوريون قد توصلوا إلى معرفة دهن الحيطان بالطلاء المائي (détrenpe) الذي يطلق عليه اسم "فرسكو" أيضًا، ولكن المحقق أنهم استعملوا طبقات من الطلاء[٥٤] على بناء الجدران مباشرة.

وفي قصوره كان نظام تغطية الحجر من الداخل على هذا الأسلوب مبتدئًا من أسفل إلى أعلى وأسفل يكون على الأغلب ملونًا بلون أسود، ويليه إلى فوق، وبارتفاع عظيم، حقل الحائط، ويكون عادة من النقوش البارزة، ويلي ذلك شريط (إزار) عريض من مربعات القيشاني يتصل بالسقف.

وعندما كان الآشوريون يصورون على الحيطان أشخاصًا، فإنهم كانوا دائمًا يجعلون حدود الشكل مثل حدود نقوشهم البارزة؛ أما التلوين فإنه لم يتألف، كما في مصر، إلا من لون واحد مصمت، بلا ظل، أو تدرج لوني، بقصد التزويق أو الزخرفة.

أما التصوير بالألوان بالمعنى الحقيقي المعروف الآن فإنه لم يكن كفن مستقل، لا في بابل ولا في نينوى ولا في وادي النيل أيضًا، ولكن فنًا آخر بديعًا حل مكانه، وهذا الفن هو المختص بصنع مربعات القيشاني(أو الطوب الحرفي)، فإن السائح لا يخطو خطوة في أرض ما بين النهرين حتى يجد شقفها[٥٥].

---

(٥٣) طريقة دهان الحيطان بألوان مذابة في الماء مع قليل من الغراء، ويطلق عليها في مصر "التلوين بالفرشة".

(٥٤) يعرف في مصر "بالبياض".

(٥٥) كسر الخزف، والواحدة شقفة.

وكانت هذه المربعات القيشانية تعمل بكثرة في تكسية "وزرات" الحيطان بأكملها، فكانت ألوانها الزاهية الخلابة تمتزج بعضها بعض امتزاجًا لطيفًا هادئًا منسجمًا يدل على ذوق سليم ناضج لم يفقه قط ذوق آخر، لتعطي رسومًا ساحرة، فلا بد أن هذا القيشاني كانت تتألف منه أفخم الزخارف المعمارية التي تألقت في ضوء شمس الشرق الساطع.

وهكذا كان جمال هذا الطراز من الزخرفة الآشورية حتى أن كل الأمم التي تعاقبت على أرض ما بين النهرين، من الفرس إلى المغول، قد اهتموا بتقليده، فصار لبابل وآشور تلاميذ عادلوا أساتذتهم في المهارة والإتقان ولكنهم لم يفوقوهم.

وكان الآشوريون يصنعون هذا القيشاني (الطوب الخزفي) بحرقه أولًا في نار هادئة، ثم يطلونه باللون والرسوم الجميلة، ويغشون ذلك بطبقة زجاجية ويعيدونه إلى النار مرة ثانية.

وكانت الألوان التي يستعملونها مستخرجة من أكاسيد (جمع كلمة أكسيد العلمية) معدنية، ولكنها لم تكن زاهية كألوان النقوش البارزة التي وجدت على النقوش البارزة، كالأزرق الزعفراني، والاخضر الزيتي (الزيتوني)، والأصفر الفاقع؛ والأبيض كان هو اللون السائد، أما الأسود فكان نادرًا، وأندر منه اللون الأحمر في القيشاني، مع أنه كان كثير الاستعمال في المنحوتات.

والزنجفر (سلاقون أو أكسيد الرصاص الأحمر) الذي كان يستعمله الآشوريون كان يتحول لونه إلى أصفر تحت تأثير الحرارة الشديدة، وهكذا كان اللون الأحمر يختفي بعد الثية الثانية.

أما الرسوم التي كانوا يستعملونها في زخرفة القيشاني فإنها متنوعة جدًا، وليس لها مثيل من حيث الرونق والصقل والاتقان، على أن صور الأشخاص

والحيوانات لم تخل من محاسن وعيوب النقوش البارزة، وقد كان الآشوريون بارعين في اختيار النماذج التي يقتبسون عنها حلياتهم، وقد توفقوا في مزج الأشكال الهندسية المخضة، كالشكل الممين (سنبوسكة)، والمربع، والنجمي، والوردي؛ مع مواضيع مأخوذة عن المملكة النباتية، كالزهور، والبراعم (أزرار)، وزهرة اللؤلؤ (مرغريت) المتفتحة، والغصون اللدنة، والعناقيد الظريفة، وقد استعانوا أيضًا على هذه الحليات باستعمال مجموعات متوائمة من حروف كتابهم المسمارية (أو الأسفينية)، حتى أن العرب من بعدهم قد توسعوا في تنويع هذه الحليات فاستمدوا من طرق تشابك وتنميق حروفهم الكتابية الجميلة نماذج أولية لزركشة ما صنعوه من الزخارف الخزفية.

وكثيرًا ما كان الآشوريون يصنعون لوحة مؤلفة من عدة مربعات خزفية فيها مشهد أو صورة فنية واحدة. ففي هذه الحالة لابد وأنهم كانوا يصورون، ثم يلونون كل المشهد على عدد من اللوحات القرميدية المتجاورة الوضع، ثم يحرقون هذه اللوحات متفرقة، وبعد إخراجها من الأفران (القماين) يعاد توليفها كما نفعل نحن عندما نتلهى بقطع الوقت في لعبة "الصبر" (Patience) بورق اللعب.

ولا حاجة بنا إلى محاولة الثناء على مهارة وسلامة ذوق الآشوريين في هذا النوع من الزخرف المعماري، لأن ذلك يفوق كل مدح وإطناب.

ويكفي أن نذكر فضلهم على العالم بانتشار هذا الفن في كل بلاد الشرق، من شمال أفريقا إلى ضفاف نهر الكنغ[٥٦] (Gunge) حتى شواطىء المحيط الاطلنطي (بحر الظلمات)، حيث نجد هذه التحف التي مازالت ماثلة تسحر عقول السياح الغربيين وتبهر عيونهم.

---

(٥٦) نهر هندستان، طوله ٣١٠٠ كيلو مترًا. ينبع من جبال هملايا ويصب في خليج بنغال.

٣- الفنون الصناعية:

رأينا في الاسطر السابقة كيف أن صناعة الآجر المغشى بالميناء، الذي قوام صنعه الصلصال (طين الفخار)، كانت مزدهرة وناجحة في ما بين النهرين، فهذه المادة الأولية الكثيرة الانتشار على ضفاف الفرات والدجلة، وفي السهول والمستنقعات الواسعة في تلك الجهات، لعبت دورًا هامًا باستعمالها في عدد وافر من الصناعات وذلك لسهولة الحصول عليها، ولأنها كانت في متناول الجميع.

فهذا الصلصال انتفعوا به في صنع اللبن (الطوب الاخضر) والآجر (الطوب المشوي) اللذين كانا وحدهما عماد المنشئات الأثرية، وكذلك في صنع الخزف والقيشاني الذي استعمل لزخرفة هذه الأبنية وغيرها، ثم إنهم جبلوا منه لوحات رقيقة قامت مقام الورق حتى امتلأت بها ما أسموها دور المطالعة (مكتبات)، وكذلك قسوه (حجروه) وصنعوا منه أوان زينية هائلة الحجم، ونواويس لدفن موتاهم.

ومع كل ما مارسه الآشوريون وما نالوه من الرواج والفائدة من المصنوعات المرتبطة بالصلصال فإنهم لم يصلوا بهذه الصناعة إلى ما يقرب من حدود الكمال.

وقد كانوا يعرفون "المخرطة"[٥٧]، وصنعوا عددًا عظيمًا من الأشياء الفخارية كما يتضح لنا من الكميات التي وصلت إلينا، ولكن قل أن يكون لهذه الأواني شكل في منسجم يدل على مهارة خاصة أو ذوق ممتاز. والنموذج الوحيد الذي لقينا كثيرًا منه هو الجرار البيضية الشكل المدببة القاع كأنها كانت

(٥٧) آلة خرط الخشب أو المعادن وغيرهما.

تصنع كذلك لغرزها في الرمل، أو لوضعها فوق حامل(٥٨) حتى ترتكز.

وكذلك المصنوعات الزجاجة فإنها لم تنل عناية أكثر من الفخارية، ولذا لم تكن أنيقة الشكل والمنظر، مع أن مادة الزجاج عرفت منذ أقدم الأزمان في ما بين النهرين، وفي نمرود (Simproud) عثر المنقبون على إناء زجاجي عليه اسم سرجون (Sargon) وهو أقدم ما في متاحفنا من هذا النوع.

وكانت أقداح شرب الاشوريين وآنيتهم الزجاجية ذات ألوان مزمئة(٥٩) (irisiation) زاهية بهرت عيون السياح لأول وهلة حتى جعلتهم يضارعونها بمصنوعات مدينة البندقية (Venise)، ولكن سرعان ما اتضح لهم أن هذه الألوان المتألقة هي نتيجة عمل الوقت والطبيعة، وأنها لم تكن في هذه الآية عند خروجها من يد صانعها الساذج في قديم الزمان.

أما أنسجة الآشوريين والبابليين فلم نعثر إلى الآن على أثر يهدينا إلى شيء من صناعتها، ولكن إذا أمعنا النظر في رسومهم البارزة أمكننا أن نعرف شيئًا عنها من الزركشة الظاهرة على ملبوساتهم في هذه النقوش.

على أن المؤرخين الإغريق والعبرانيين قد حدثونا بما فيه الكفاية عن شهرة الطنافس والبط والأقمشة التي كانت تصنع في أرض ما بين النهرين، وكذلك ورد في التوراة(٦٠) أن رجلًا اسمه عخان "تعدي عهد الرب" الذي كان يقضي بحرق كل الأسلاب والغنائم عند سقوط مدينة أريحا (بفلسطين)، إذ رأى في الغنيمة رداء شعاريًا (بابليًا) نفيسًا، ومئتي شاقل فضة، ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلًا، واشتهاها وأخذها لنفسه، وكان ذلك سببًا في اعدامه وكل أهل بيته .... إلخ .

---

(٥٨) ولعله يقصد أنها بشكل ما يمسونه في مصر "زلعة" أو "زير" الذي يوضع عادة على "حمالة".

(٥٩) تتلون بألوان قوس قزح.

(٦٠) ي سفر يسوع، الإصحاح السابع والعدد العشرون وما بعده.

وقياسًا على صناعة القيشاني، يمكننا القول بأن صناعة النسيج، لم تنمح قط من هذه البلاد حيث كانت رائجة وزاهرة، فإننا نجد أن الصباغين والحاكة (جمع حائك) الكلدانيين قد أعقبوا تلامذة مازالوا إلى الآن بين الصناع الذين يتحفوننا بالأبسطة الشرقية الفاخرة.

وخلاصة القول أن كل الفنون الصناعية قد بلغت في بابل ونينوى شأنًا عظيمًا، فالحلي والثياب والأسلحة والمفروشات نرى من صورها المحفورة أنها قد بلغت من النفاسة ودقة الصنع مكانة لم يبلغها شعب من شعوب زمانهم.

وحتى الأن نجد أن تطريز وزركشة الثياب، والمعاطف والملاحف التي يستعملها الملوك ما خرجت عن كونها صورة طبق الأصل المأخوذ عن نقوشهم البارزة، وكذلك مقابض السيوف فإنها على شكل أسود غاضبة، وظهور المقاعد مستندة إلى صفوف من الأسرى محفورة في الخشب أو العاج، وكذلك كثير من الأشياء الشائعة الاستعمال، كالأمشاط مثلًا، فإنها مزخرفة بأشكال أشخاص محفورة عليها.

ولم يوجد في هذه البلاد، البذاخة[٦١] بثروتها الواسعة، شيء بسيط أو ساذج، حتى أصبحت مضرب الأمثال في الترفة[٦٢] ، وعلاوة على ما كانت تنتجه مصانعهم من كل هذه الاشياء لإرضاء مطالب أهالي البلاد التي لاحد لها، فإنها كانت تشتغل لتسد طلبات الأسواق الخارجية التي كانت تتمون من مصانع كلدة وآشور الشهيرة، وكذلك يصح أن نتخيل وراء رخاء ونعومة عيش بابل، وخلف خشونة ونشاط نينوى الحربي، طائفة سكت التاريخ القديم عنها لقلة ضوضاء أفرادها مع كثرة عددهم، ألا وهي طائفة الصناع التي ضربت بسهم وافر في سير موكب الحضارة.

---

(٦١) متكبرة.

(٦٢) النعمة ورغد العيش.

وبما أنه يستحيل علينا الاسترسال في الكلام على جميع الحرف التي ازدهرت في ما بين النهرين، فإننا سنحاول الاقتصار على أهمها مما له اتصال بالفنون، وهو صوغ المعادن، والحفر على الحجارة الكريمة (glyptique).

ومن خصوص استخراج وشغل المعادن، نعلم أن الآشوريين، أو بالأحرى قدماء الكلدانيين، قد سبقوا كل قدماء الشعوب، ولم يلحقهم إلا الأمم الحديثة، وفي الواقع نجد أنهم قد عرفوا أهم المعادن إطلاقًا، وهو الحديد، وكذلك عرفوا طريقة صنع الفولاذ.

وقد عزا بعض المؤرخين سيطرة نينوى الساحقة على أسيا، وطول أمدها، إلى امتلاكهم ناصية الحديد والاهتداء إلى سر صنع الفولاذ، ولكن مثل هذا التسلط لابد وأن يكون له غير واحد من الأسباب، ومن المحقق هو أن ما ذكرناه يجب أن يعد من أهمها، وقد عثروا في مستودعات قصر خورزاباد على كمية هائلة من الأدوات الحديدية من كل نوع، بعضها من الحديد فقط، والبعض من الحديد المقسى حده بالفولاذ؛ منها كلاليب، وسلاسل، ومطارق، وسكك محاريث، ومعاول، وفؤوس، وما إلى ذلك.

أما نينوى فلم تكن لها الأسبقية في استعمال المعدن الثمين (الذهب) ، بل سبقها إليه بابل كما سبقتها في أشياء أخرى عديدة، وقد وجدوا في أقدم مقابر بابل أشياء كثيرة مصنوعة من البرنز، ومن الحديد، ومن الذهب، مما يثبت بأقوى برهان أن صناعة التعدين (استخراج المعادن) كانت متقدمة عند قدماء الكلدانيين.

ثم إن وجود الفأس والمنجل أحيانًا من المعدن[٦٣] وأحيانًا من الصوان (الظران) يدلنا على أن ذلك كان فاتحة عهد الحديد والبرنز في مطاوي الطور

(٦٣) لعله يقصد الحديد.

الظراني.

وكان سكان ما بين النهرين يستنبطون أكثر معادهم من المناطق الجبلية المحيطة بحوضي الفرات والدجلة، ويظهر اأهم لم يوفقوا إلى استخراج كفايتهم من الذهب، فكانوا يستوردونه من خارج بلادهم، أي من الهند أو من مصر أو غيرهما، أما القصدير فإن العلماء لم يتمكنوا من معرفة مصدره على وجه التحقيق، لأنهم لم يجدوا مناجمه في كل أسيا، فرجحوا أنه كان يصلهم بوساطة الفينيقين، لأن الكلدانيين استعملوه في صنع نوع فاخر من البرنز.

ويرجع تاريخ التحف الأثرية الفنية المصنوعة من البرونز كالدمى(٦٤) والمزهريات والنقوش البرنزية البارزة إلى أقدم العصور التي عرفت في تاريخ الحضارة الكلدانية.

ولقد مهر البابليون والآشوريون في عمل الرسوم البارزة بالطرق أو الضغط، فنجد أبواب قصورهم ومدنهم مكسوة بصفائح من البرونز عليها رسوم بارزة بالضغط متقنة الصنع.

أما الحلي فقد كانت كثيرة الاستعمال في أرض ما بين النهرين، وكان الرجال كالنساء يشنفون آذانهم بالأقراط، ويتقلدون القلائد في أعناقهم، ويزينون معاصيهم بالأساور، وسواعدهم بالدمالج، وأصابعهم بالخواتم.

وكانوا يصيغون عليهم من الحديد عندما كان عزيز الوجود يتنافسون باقتنائه، ثم استبدلوا به البرونز، أما الحلي المصنوعة من الذهب والفضة فكانت نادرة جدًا، ولكن المصنوع منهما كان بالغًا حد الإتقان والحسن.

أما صناعة الحفر على الأحجار الكريمة جديرة بأن نخصص لها عدة

(٦٤) جمع دمية وهي التمثال الصغير.

صفحات، لأنها من الصناعات التي يسهل تتبع خطوات تطورها من بدء الحصا المنحوته بسماجة إلى الأسطوانات الحقيقية الفخمة، وتاريخ هذا التحول يلقى ضوءًا على فن صنع التماثيل الذي يواكبه على قدم المساواة دون أن يترك بينهما فراغًا، وقد وصل إلينا من هذه الأحجار البابلية والآشورية المحفورة عدة آلاف مختلفة النوع والتاريخ والصنع، وقد سبق أن نوهنا إلى الأهمية القانونية للأختام في أرض ما بين النهرين، وإلى أن بصماتها على ألواح الآجر وهو لبن كانت بمثابة التواقيع (الامضاءات)، وأن كل فرد من أهل البلاد كان واجبًا عليه أن يحمل معه دائمًا واحدًا منها، على رواية هيرودوتس، وأنه كان يستثنى منهم الفقراء المعدمين الذين كان يكتفى ببصمة (علامة أو طابع) أظافرهم، كالأميين بيننا الذين يضعون علامة صليب عند عجزهم عن كتابة أسماءهم.

وهذه الأختام التي كان يجب أن تكون كثرتها متناسبة مع عدد سكان البلاد حتى تكفيهم، كانت تجدد في ظروف خاصة، فعندما كان الملك يضع الحجر الأساسي لبناء قصر أو معبد أو باب مدينة، فإن أفراد الشعب كانت تهرع إلى مكان الاحتفال لتلقي بأختامها في حفائر هذا الأساس، ثم يعودون فيشترون بدلًا منها، ولعل هذا هو سر عثورنا على العدد الذي لا تحصى من هذه الاختام في أساسات تلك الأطلال وفي طبقات الجدران، وأننا نرجح أن السبب في بقاء أكثر هذه الاختام صليبًا هو لأنها كانت تغرز في الصلصال (طين البناء) وهو لبن قبلما يصفون عليه حجارة الأساس الكبيرة.

ونادرًا ما نجد هذه الأختام مسطحة كالأختام التي نستعملها في أعمالنا الكتابية الآن، لأن شكل أغلبها كان أسطوانيًا مثقوبًا من القلب، وعلى ظهر الإسطوانة الكتابة والنقوش التي يطبع عنها، وفي الثقب الذي في قلب الإسطوانة يمرة محور تدور عليه الإسطوانة، فلابد أنهم كانوا يمررون هذه

الإسطوانة بوساطة المحور الذي تدور عليه (كما نفعل نحن الآن عندما نريد الإعلان على أرض الطرق[٦٥]) على الصلصال الطري أو الطوب النيء لتترك عليه رسم ما هو محفور عليها، سواء أكان كتابةً أو نقشًا، وإلى الآن عندما يراد قراءة أو درس ما على هذه الإسطوانات فإنهم يمررونها بهذه الكيفية على سطح منبسط لين، من معجون الجبس الناعم، لتطبع عليه بشكل بارز صورة ما حفر عليها غاطسًا.

وقد اقتصرت صناعة حفر أحجار الأختام في ما بين النهرين على النوع الغاطس منها، ولم يصنعوا النوع البارز (Camee) لأنه لم يكن لازمًا للغرض الذي كانوا يستعملون فيه الأختام على ما يظهر.

ولا يمكن إلا أن تكون كل هذه الأختام (الإسطوانات) التي عثرنا عليها ذات قيمة فنية متساوية تقريبًا، لأنا إذا استثنينا ما صنعوه منها بعناية فنية خاصة لأجل الأغنياء والموسرين، فإن ما كانوا يصنعونه منها لعامة الشعب كان يصنع كيفما اتفق وبلا دقة ليباع بثمن رخيص، وهذا هو الجزء الأكبر والأعم.

وفضلًا عن ذلك، فإن الآشوريين لم يبلغوا ما بلغوه من إتقان صناعة حفر الأحجار الكريمة الصلبة دفعة واحدة، بل ربما قطعوا في ذلك أجيالًا عديدة ؛ لأن قدماء الكلدانيين بدأوا هذه الصناعة بتخطيط أشكال ساذجة حفروها على الحصا بكيفية بعيدة عن أصول وقواعد الفن كل البعد، ثم تقدموا تدريجًا فجازفوا بالحفر على النهاء[٦٦] (albatre)، والجزع الحبشي (Onyx)، والحجر أو الرخام السماقي (porphyre) وما إلى الرخيص الثمن من هذه الأحجار لقلة نقلها، ويسمى أيضًا عقيق يماني، ورويدًا تدرجوا، في أمد طال إلى أواخر عهد

---

(٦٥) قد تصرفنا كثيرًا في ترجمة هذه الجملة وذلك لأجل إيضاح غرض المؤلف.

(٦٦) وهو نوع من الرخام ضعيف به قليل من الشفوفة.

نينوى، حتى استطاعوا النقش على الأحجار النفيسة التامة النقاء والصفاء من العقيق الأحمر (cornaline) والعقيق الأبيض (calcedoine)، الشديدة الصلابة، التي لا يمكن حلها أو صقلها للحفر عليها إلا باستعمال مسحوقها، وقد توصلوا إلى أن يصوروا عليها نقوشًا دقيقة الصنع من النوع البارز،

أما الأختام الإسطوانية الكلدانية القديمة فإنها ساذجة من حيث نقوشها، وغير متقنة الصنع، وليس فيها ما يجعل لها أية قيمة على الاطلاق، إلا إذا اعتبرناها كمرجع فني تاريخي يستدل منه على تاريخ تقدم الفنون، أما بعض ما عثرنا عليه مما صنع منها مؤخرًا في نينوي فيمكن أن يعد بحق حقًا فنية تستوقف النظر لجمال مادتها ودقة صنعها، وذوقها الفني.

وبواسطة هذه المنتجات الفنية، قبل غيرها من الوسائط، قد استطاعت الحضارة الآشورية أن تتسرب إلى بلاد الغرب، نعم، بهذه المصنوعات الثانوية التي تناولت الأشياء المستعملة يوميًا كالأثاثات المنزلية التي من العاج المطعم، والمزهريات (vases) البرنزية، والأقمشة المطرزة، والسيوف، والأسلحة، والحلي، والحجارة الكريمة المنقوشة، قد تسنى لعقل وروح وذوق ونماذج سكان ما بين النهرين أن تتوغل فتوقظ عبقرية الأمم التي كانت لم تزل هاجعة في بات الحياة الفطرية الرتية على شواطيء البحر الأبيض المتوسط.

* * *

وسنرى عندما نكتب عن انتشار حضارة الشرق في بلاد الغرب كيف ان كلدة ومصر حضرتا بلاد الأغريق، ومهدت له بكدهما المتواصل البطيء مدة أربعة أو خمسة آلاف سنة، وكيف أن هذا العمل العظيم الذي غمطهما التاريخ حقهما فيه إلى الآن هو الذي ساعد على انبثاق نور المدنية.

الفهرس